سلسلة الإسلام الصافي – ٥
www.saaid.net/kutob

خمسون دليلا على بطلان دعاء غير الله

تأليف : ماجد بن سليمان الرسي

جمادى الأولى ١٤٣٤ هـ

مقدمة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، أما بعد:

فإن الغاية التي من أجلها خلق الله الجن والإنس هي أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئا ، قال تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ، والعبادة تشمل كل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

«فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار والمنافقين ، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك ، والإحسان إلى البهائم ، والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمته ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وأمثال ذلك ؛ هي من العبادة لله أيضًا».[1]

وضد العبادة الشرك في عبادة الله ، بأن يجعل الإنسان لله شريكا يعبده كما يعبد الله ، ويخافه كما يخاف الله ، ويتقرب إليه بشيء من العبادات كما يتقرب لله ، من دعاء وصلاة أو ذبح أو نذر أو غير ذلك.

والكلام في هذا البحث المختصر منصب على مسألة صرف عبادة الدعاء لغير الله ، وبيان وجوه بطلان دعاء غير الله العقلية والنقلية ، وقبل البدء في مناقشة هذه المسألة أقول إن الدعاء عبادة جليلة ، قد خصها الله بالذكر في كثير من الآيات ، وبَيّن النبي ﷺ شرفها في كثير من الأحاديث الصحيحة ، إلا أنه من أكثر العبادات التي شرّك الناس فيها بين الله وبين خلقه ، فإنك تجد – مع الأسف الشديد – كثيرا ممن ينتسب إلى الإسلام قد وقعوا في دعاء غير الله ، سواءً كانوا من الأنبياء أو الصالحين ، كمن يقول: يا نبي الله أغثني ، أو: يا عبد القادر الجيلاني أشكو إليك ذنوبي ، أو: يا بدوي مدد مدد ، أو: أشكو إليك نقص رزقي ، أو تسلُّط العدو علي ، أو قلة الولد ، أو: أشكو إليك فلانا الذي ظلمني ، أو يقول: أنا نزيلك ، أنا ضيفك ، أنا جارك ، أو: أنت تجير من يستجير ، أو: أنت خير معاذ يستعاذ به ، أو: ارزقني الولد ، أو قول القائل إذا عثر : يا جاه محمد ، يا ست نفيسة ، أو: يا سيدي الشيخ فلان ، ونحو ذلك من الأقوال التي فيها تعلق وتوجه ودعاء لغير الله ، وبعضهم يكتب على أوراق ويعلقها عند القبور ، أو يكتب محضرا أنه استجار بفلان ، ثم يذهب إلى أحد المقبورين بذلك المحضر ليغيثه! وما يدري المسكين أنه قد خلع بفعله هذا ربقة الإسلام من عنقه بدعائه ذلك الميت ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم.

وفي هذه الوُريقات ؛ نقلت ما يسر الله نقله من أدلة نقلية وعقلية على بطلان دعاء غير الله ، لعلها تكون مَعونة للعاقل وتذكرة للجاهل ، والله أسأل أن يوفقنا والمسلمين جميعا لإخلاص العمل لله وحده ، وأن يجنبنا وإياهم طرق الشرك والضلال ، والله أعلم ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه ، وسلَّم تسليما كثيرا.

وكتبه ، ماجد بن سليمان الرسي ، صبح الثلاثاء ، الثالث والعشرين من شهر ربيع الثاني ١٤٣٤ هجري

هاتف : ٠٠٩٦٦٥٠٥٩٠٦٧٦١

المملكة العربية السعودية

www.saaid.net/book ، majed.alrassi@gmail.com

---

[1] نقلا من «مجموع الفتاوى» لابن تيمية رحمه الله (١٠/١٤٩ – ١٥٠) بتصرف يسير.

فهرست

- مقدمة
- تأصيل
  - مكانة الدعاء بين سائر العبادات
  - فصل في الأمر بدعاء الله وحده والنهي عن دعاء غيره
- فصل في بيان الوجوه الخمسين لبطلان دعاء غير الله
  - الوجه الأول: أن الله سبحانه أمر بأن تصرف العبادات كلها له وحده ، الدعاء وغيره ، فمن صرف شيئاً منها لغير الله على سبيل المشاركة أو الاستقلال فقد أشرك بالله العظيم
  - الوجه الثاني: أن القرآن والسنة قد خصا الدعاء بتأكيد الإخلاص فيه ، والنهي عن صرفه لغير الله
  - الوجه الثالث: أن الله والملائكة وأولي العلم شهدوا بأنه لا يستحق العبادة غير الله
  - الوجه الرابع: أن دعاء غير الله شرك أكبر مهما كانت ذريعته
  - الوجه الخامس: أن عبادة غير الله انحراف عن الفطرة التي خلق الله الناس عليها ، وهي عبادة الله وحده
  - الوجه السادس: أن هذا الفعل هو فِعْلَ المشركين الذين بعث فيهم الرسول ﷺ سواء بسواء
  - الوجه السابع: أنَّ دعاء غير الله من الأنبياء والصالحين لو كان صواباً لأمَر به الله – تعالى الله عن ذلك – ، ولَفَعله النبي ﷺ وصحابتُه رضي الله عنهم
  - الوجه الثامن: أن الذي يتوجه إلى غير الله بالعبادة والدعاء قد ساوى هذا المعبود بالله عز وجل في الحب والتعظيم
  - الوجه التاسع: أن الله عز وجل لا يقبل عملاً دخله الرياء ، لأنه سبحانه وتعالى غني عن أن يكون له شريك ، فيكون الشرك في الدعاء مردود أيضا ، لأن بابهما واحد ، وهو التقرب للمخلوقين

فهرست مواضيع الكتاب

- الوجه العاشر: أن الله قد صرّح في كتابه بأنه لا يستجيب الدعاء إلا الله وحده ، فوجب الإيمان بذلك
- الوجه الحادي عشر: تصريح الله بأن دعاء غيره باطل ، وفي هذا كفاية وشفاء لمن أراد الحق
- الوجه الثاني عشر: أن الله قد حكم على من دعا غيره أنه لا أضل منه
- الوجه الثالث عشر: أن ترك دعاء الله من أسباب غضب الله ، هذا إذا كان الداعي لا يدعو غير الله إذا دعا ، فكيف بمن يدعو غير الله إذا دعا؟
- الوجه الرابع عشر: أن الله توعد من دعا غيره بالنار
- الوجه الخامس عشر: أن الذين يدعون الأنبياء والصالحين يُـقِـرُّون بأن الله تعالى وحده هو الرب الخالق الذي بيده ملكوت كل شئ ، وهذا يستلزم أن يوحِّدوه بالعبادة كما وحَّدوه بالربوبية ، والدعاء من أعظم أنواع العبادة
- الوجه السادس عشر: أن تلك المعبودات التي تُدعى من دون الله عاجزة من جهة العلم
- الوجه السابع عشر: أن تلك المعبودات التي تدعى من دون الله عاجزة من جهة القدرة
- الوجه الثامن عشر: أن تلك المعبودات التي تدعى من دون الله عاجزة من جهة الـمُلك
- الوجه التاسع عشر: أن تلك المعبودات التي تدعى من دون الله عاجزة من جهة الخلق
- الوجه العشرون: أن تلك المعبودات التي تدعى من دون الله عاجزة من جهة التدبير
- الوجه الحادي والعشرين: أن تلك المعبودات عاجزة من جهة الرزق
- الوجه الثاني والعشرون: أن تلك المعبودات التي تعبد من دون الله أو مع الله لا تدوم لعابديها ، بل ستفنى وتندثر في الأرض ، وهذا من وجوه عجزها ، فدل هذا على بطلان عبادتها ، إذ لو كانت عبادتها حقا لدامت!
- الوجه الثالث والعشرون: أن الكتاب والسنة ينصان على أن الميت ليس له اتصال بالدنيا البتة ، بل هو غافل عنها ، سواء كانت روحه في عليين أو كانت في سجين ، فكيف يقدر مَن هذه حاله أن يجيب الطلبات ويقضي الحاجات؟!

- الوجه الرابع والعشرون: أن مقتضى فِعل الذين يدعون غير الله من الموتى أو الجمادات أنهم يعتقدون أن الموتى في مرتبة أعلى من مرتبة الأحياء ، لكونهم — في الغالب – لم يبدعونهم إذ كانوا أحياء ، فلمَّا ماتوا شرعوا في دعائهم ، وهذا مخالف لما دل عليه الشرع والعقل والفطرة السليمة من أن الأحياء في مرتبة أعلى من مرتبة الأموات
- الوجه الخامس والعشرون: أن الذين يُعبدون من دون الله سيخذلون من كانوا يعبدونهم يوم القيامة ويتبرؤون منهم ، سواء الراضين منهم بعبادتهم أم غير الراضين
- الوجه السادس والعشرون: ما قصه الله علينا في القرآن من اعتراف الكفار وهم في النار بأن دعاءهم لغير الله ليس بشيء
- الوجه السابع والعشرين: أن دعاء أصحاب القبور يلزم منه مضاهاتهم بالله عز وجل في صفة السمع والعلم
- الوجه الثامن والعشرون: أن المخلوقات لا تستوي مع بعضها البعض ، فكيف يصح مساواتها بخالقها وهو الله عز وجل
- الوجه التاسع والعشرون: أن دعاء غير الله يستلزم صرف عبادات أخرى يتضمنها الدعاء لغير الله
- الوجه الثلاثون: أن دعاء غير الله محرمٌ بالنظر إلى ما أدى إليه ، وهو اعتقاد الربوبية في أولئك المدعوّين من دون الله استقلالا أو مشاركةً مع الله
- الوجه الحادي والثلاثون: أن الأنبياء ومن تبعهم على الحق من الصالحين لا يرضون بأن يُصرف لهم الناس شيئا من العبادات ، لا في حياتهم ولا بعد مماتهم
- الوجه الثاني والثلاثون: أن الرسول ﷺ كان ينهى الناس عن مجرد المبالغة في مدحه وتعظيمه ، فكيف بمن أشركه أو أشرك غيره مع الله في الدعاء؟!
- الوجه الثالث والثلاثون: أن أولئك المدعوين من الأنبياء والصالحين والملائكة هم أنفسهم عبيد لله يتقربون إلى الله بالأعمال الصالحة ، ومن كان عبدا لله فإنه لا يستحق أن يُعبد أو يَتقرب الناس إليه
- الوجه الرابع والثلاثون: أن أولئك المدعوين من الأنبياء والصالحين هم أنفسهم محتاجون للأحياء ، بدعائهم والاستغفار لهم، لأن الميت قد انقطع عمله

- الوجه الخامس والثلاثون: ومن وجوه بطلان دعاء الموتى أن النبي ﷺ مدح من لم يسأله شيئا من الأمور الدنيوية ، وفضَّله على من سأله ، بل ذم كثيراً ممن سأله السؤال الجائز مما يقدر عليه ، وعلمهم ترك سؤال الناس ليربيهم على تمام التعلق بالله وحده ، فماذا يقال لمن توجه للنبي ﷺ أو لغيره بطلب الحاجات التي لا يقدر عليها إلا رب العالمين؟
- الوجه السادس والثلاثون: ومن الأدلة على بطلان دعاء غير الله أن العبد كلما كان أكثر توحيدا وذلاً لله وافتقاراً إليه كان أعز له وأعظم لقدره
- الوجه السابع والثلاثون: اعتزال الأنبياء لمن وقعوا في دعاء غير الله ولو كان الفاعل لذلك أقــرب قريب ، فدل هذا على بطلان هذ الفعل ونكارته
- الوجه الثامن والثلاثون: أن من حق المُنعِم شكرِه على نعمه ، وشكرُ الله لا يكون إلا بعبادته عبادة خالصة
- الوجه التاسع والثلاثون: ومما يدل على بطلان دعاء غير الله وأن فِعله كفر ؛ أنه لما جحدت بعض أحياء العرب فريضة الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ قاتلهم أبو بكر رضي الله عنه قتال ردة ، فكيف لو رأى من يقول بجواز صرف لب العبادة وخالصها – وهو الدعاء – لغير الله؟
- الوجه الأربعون: أن دعاء الميت والتوجه إليه أشد من مجرد اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ، وقد ثبت بل استفاض عن النبي ﷺ أنه لعن الذين يتخذون قبور الأنبياء مساجد ، أي يُصَلُّون عندها ويدعون الله تعالى ، فإذا كان من اتخذها مسجدا يُصلِّي فيه لله تعالى ويدعوه فيها ملعونا ؛ فالذي يقصدها ليدعو غير الله فيها ، ويتضرع فيها لغير الله ، ويخضع ويخشع فيها لغير الله أحقُّ باللعنة ، وهذا من دلائل بطلانِ دعاء الله
- الوجه الحادي والأربعون: أنه لا يستقيم أن يكون للعبد أكثر من سيد يملكه ، لأن أوامر ونواهي السادة ستختلف عليه ، فمن باب أولى أن لا يستقيم أن يكون له أكثر من إله يعبده
- الوجه الثاني والأربعون: أن الإنسان لا يرضى على نفسه أن يشاركه أحد من عبيده فيما يملكه ، فكيف يرضى على الله أن يشاركه أحد من عبيده فيما يستحقه من خالص حقه ، وهو عبادته وحده لا شريك له؟
- الوجه الثالث والأربعون: أن القلوب لا تصلُح إلا بإفراد الله بجميع العبادات ، لاسيما الدعاء ، وإذا تعلق بغير الله وأحبه فوق الحد الشرعي ضره ذلك

فهرست مواضيع الكتاب

- الوجه الرابع والأربعون: أن فاعلي ذلك ليسوا واثقين ولا مطمئنين لما يفعلونه ولا ثابتين عليه ، فتراهم يتنقلون بين معبوداتهم ، فتارةً يدعون ميتاً ، وتارةً يدعون ميتاً آخر
- الوجه الخامس والأربعون: أن محبة العابد لمعبوده الذي يعبده من دون الله ليست إلا محبة مؤقتة ، سَرَعان ما تنقطع إذا انتقل إلى معبودات أخرى ، أو تعرضت تلك الآلهة إلى الفناء والإندثار ، أما العابد لله وحده فيحب الله دائما
- الوجه السادس والأربعون: أن الأمور العظيمة كإنزال الغيث وكشف العذاب لا تحصل إلا بدعاء الله وحده
- الوجه السابع والأربعون: أن الذين يدعون أصحاب القبور إنما يُستجاب لهم في النادر ، والغالب تخلف الإجابة
- الوجه الثامن والأربعون: إنكار واستغراب بعض الكفار لِما يفعله عبَّاد القبور عندها من دعائها والتقرب لها
- الوجه التاسع والأربعون: ما خلَّفه تعظيم القبور والأضرحة من أثر سيء على الأمة الإسلامية في أمور مهمة تتعلق بعمارة الأرض
- الوجه الخمسون: أن عمدة من يدعون غير الله إما شبهات حديثية ، كأحاديث ضعيفة أو مكذوبة ، أو شبهات عقلية ، أو تجارب وضعية ، أو قصص أو حكايات أو منامات ، وهذه كلها لا يُعتمد عليها لا في فروع الدين ولا في أصوله
- الوجه الحادي والخمسون والأخير: أن الداعي لغير الله قد حرم نفسه من فرح الله بإقباله إليه ، وانطراحه بين يديه ، بدعائه مباشرة ، واستعاض عن هذا بالانطراح بين يدي مخلوق مثله

- نتيجة البحث

تأصيل ، الدعاء عبادة

مكانة الدعاء بين سائر العبادات

الدعاء عبادة جليلة ، قد خصها الله بالذكر في كثير من الآيات ، وبيَّن النبي ﷺ شرفها في كثير من الأحاديث الصحيحة ، فمنها حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: إن الله حَيِيٌّ كريمٌ يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين.[١]

وقال رسول الله ﷺ : لا يرُدُّ القضاء إلا الدعاء.[٢]

وقال رسول الله ﷺ : ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء.[٣]

وقد جاء تصريح النبي ﷺ بتعظيم شأن الدعاء في قوله ﷺ : الدعاء هو العبادة ، وقرأ ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ إلى قوله ﴿داخرين﴾.[٤]

وحَصْرُ العبادة في الدعاء ليس حصْرا كليا ، بمعنى أن الدعاء يضم جميع أنواع العبادات ، كلا ؛ بل المراد به التنبيه على عِظم الدعاء وشرف مكانته ، وأنه لُبُّ العبادة وخالصُها وركنها الأعظم ، وهو كقوله ﷺ : (الحج عرفة)[٥] ، وقوله ﷺ : (الدين النصيحة)[٦].

وقد شكَّك بعض الناس في كون الدعاء عبادة ، ليصِلوا بذلك إلى جواز صرفِه لغير الله ، وهذا الزعم مردود عليهم ، فقد سمى الله الدعاء عبادةً في قوله ﴿قل إني نهيت أن **أعبد** الذين **تدعون** من دون الله لما جاءني البينات من ربي﴾ ، وقال تعالى ﴿وقال ربكم **ادعوني** أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن **عبادتي** سيدخلون جهنم داخرين﴾ ، أي أذلاء ، فَوَصَفَ اللهُ الدعاء بالعبادة في الآيتين ، فدل ذلك على عِظم شأنه.

كما سمى الله الدعاء دينًا كما في قوله تعالى ﴿فإذا ركبوا في الفلك دَعَوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾[٧].

---

١ رواه الترمذي (٣٥٥٦) ، وصححه الألباني.

٢ رواه الترمذي (٢١٣٩) ، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وحسنه الألباني ، انظر «الصحيحة» (١٥٤).

٣ رواه الترمذي (٣٣٧٠) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وحسنه الألباني.

٤ رواه أبو داود (١٤٧٩) ، والترمذي (٢٩٦٩) ، وغيرهما عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، وصححه الشيخ الألباني.

٥رواه النسائي (٣٠١٦) وغيره ، عن عبد الرحمٰن بن يَعمَر رضي الله عنه ، وصححه الألباني.

٦ رواه مسلم (٥٥) عن تميم الداري رضي الله عنه.

٧ سورة العنكبوت: ٦٥ .

فجعل الله سبحانه الدين بدلًا من الدعاء ، وعرَّفه بالألف واللام التي تُفيد العهد ، فدل ذلك على أن الدعاء دينٌ ، وما كان دينا فهو عبادة.

ثم إن الله تعالى قد أمر بدعائه ، وكل ما أمر الله بفعله فهو عبادة واجبة أو مستحبة ، كما في الآية المتقدمة ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ ، وقال تعالى ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية﴾.

وكذلك النبي ﷺ أمر بدعاء الله ، كما في قوله: فأمَّا الركوع فعظِّموا فيه الرب تعالى ، وأما السجود **فأكثروا من الدعاء** ، فَقَمِنٌ[1] أن يستجاب لكم.[2]

قال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن أبابطين[3] رحمه الله:

وكل ما أمر الله به أمر إيجاب أو استحباب فهو عبادة عند جميع العلماء ، فمن قال إن دعاء العبد ربه ليس بعبادة له فهو ضال ، بل كافر.[4]

فصل في الأمر بدعاء الله وحده والنهي عن دعاء غيره

القرآن والسنة يأمران بإفراد الله وحده بالدعاء ، وينهيان عن دعاء غيره ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية﴾[5] ، وقوله تعالى ﴿واسألوا الله من فضله﴾[6].

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم[1] رحمه الله:

١أي حريٌّ.

٢ رواه مسلم (٤٧٩).

٣ هو الشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن أبابطين ، ولد سنة ١١٩٤ هـ في روضة سدير ، تتلمذ على بعض تلامذة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، تولى القضاء والإفتاء ، وصار من أكابر علماء نجد ، حتى لُقِّب بـ «مفتي الديار النجدية» ، برع في الفقه ، ودرَّس في بلاد كثيرة ، وله تلامذة كثر ، منهم أحمد بن إبراهيم بن عيسى (١٣٢٩ هـ) ، شارح نونية ابن القيم ، وعثمان بن عبد الله بن بشر (١٢٩٠ هـ) ، المؤرخ المعروف ، له عدة كتب في الذب عن العقيدة الإسلامية ، منها «الانتصار لحزب الله الموحدين ، والرد على المجادل عن المشركين» ، وكتاب «الرد على البردة» ، وكتاب «تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس» ، وله رسائل وردود بعضها مثبت في كتاب «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» ، وبعضها مثبت في «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» ، توفي في شقراء سنة ١٢٨٢ هجرية ، رحمه الله رحمة واسعة.

باختصار وزيادة من ترجمته في مقدمة كتابه «تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس» ، وهي من إعداد د. عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم رحمه الله ، وانظر للتوسع في ترجمته كتاب «الشيخ العلامة عبد الله بن عبد الرحمٰن أبابطين ، مفتي الديار النجدية» ، تأليف د. علي بن محمد العجلان ، الناشر: دار الصميعي – الرياض.

٤ «تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس» ، ص ١٢٧ .

٥ سورة الأعراف: ٥٥ .

٦ سورة النساء: ٣٢ .

وأما إفراد الله بالدعاء فجاء ذكره في نحو ثلاثمائة موضع منوع ، تارة على صيغة الأمر به ، كقوله ﴿أدعوني أستجب لكم﴾[٢] ، ﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾[٣].

وتارة يذكره الله بصيغة النهي كقوله ﴿فلا تدعوا مع الله أحدا﴾[٤].

وتارة يقرنه بالوعيد كقوله ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين﴾[٥].

وتارة بتقرير أنه هو المستحق للألوهية والتعبد كقوله ﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو﴾[٦].

وتارة في الخطاب بمعنى الإنكار على الداعي كقوله ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾[٧].

وتارة بمعنى الإخبار والاستخبار ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات﴾[٨].

وتارة بالأمر الذي هو بصيغة النهي والإنكار ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾[٩].

---

١ الشيخ عبد الرحمٰن من علماء نجد المعروفين ، ولد سنة ١٣١٩ هجرية ، ودرس على يد جملة من علماء نجد ، تميز الشيخ بخدمة التراث العلمي من مصادره ثم تحقيقه وطباعته ، أبرزها فتاوى ابن تيمية ، جمعها في خمسة وثلاثين مجلدا عدا الفهارس ، وطبعت على نفقة الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله عام ١٣٨١ هـ ، وكذا جمع فتاوى علماء نجد بدءا من الشيخ محمد بن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر إلى العلماء المعاصرين في زمنه ، وهي المعروفة بـ «الدرر السنية في الفتاوى النجدية» ، وتقع في ستة عشر مجلدا ، وطبعت على نفقة الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٣٥٦ هجرية، وجمع الشيخ أيضا فتاوى مفتي الديار السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله في ثلاثة عشر جزءا ، وطبعت بأمر من الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله في عام ١٣٩٠ هـ.

وللشيخ مؤلفات وشروحات في العقيدة وأصول التفسير والفقه والحديث والنحو ، قد نفع الله بها كثيرا واستفاد منها المسلمون ، رحمه الله وأجزل ثوابه.

توفي الشيخ عبد الرحمٰن سنة ١٣٩٢ هجرية رحمه الله رحمة واسعة.

٢ سورة غافر: ٦٠ .

٣ سورة الأعراف: ٢٩ .

٤ سورة الجن: ١٨ .

٥ سورة الشعراء: ٢١٣ .

٦ سورة القصص: ٨٨ .

٧ سورة يونس: ١٠٦ .

٨ سورة الأحقاف: ٤ .

٩ سورة سبأ: ٢٢ .

وتارة أن الدعاء هو العبادة ، وأن صرْفَه لغير الله شرك ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ إلى قوله ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾[1] ، ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ إلى قوله ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله﴾[2].

وفي الحديث: (الدعاء هو العبادة)[3]، صححه الترمذي وغيره ، وقد أتى فيه بضمير الفصل ، والخبر المعرَّف باللام ليدل على الحصر ، وأن العبادة ليست غير الدعاء ، وأنه مُعظم كل عبادة[4] ، ونهى أن[5] يشرك معه أحد فيه ، حتى قال في حق نبيه ﴿ﷺقل إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحدا﴾[6] ، وأخبر أنه لا يَغفر أن يشرك به.[7] انتهى.

قلت: ومن أدلة وجوب إفراد الله بالدعاء ؛ حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال: إذا سألت **فاسأل الله** ، وإذا استعنت فاستعن بالله.[8]

فلو كان سؤال غير الله جائزا لأرشده النبي ﷺ إلى ذلك بقوله : واسألني ، أو: استعن بي ، فلما لم يقع هذا – والمقام مقام تعليم – دلَّ ذلك على أن سؤال غير الله لا يجوز.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟[9]

وقد جاء النهي صريحا عن دعاء غير الله في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: من مات وهو يدعو من دون الله نِدًّا[10] دخل النار.[11]

---

١ سورة الأحقاف: ٥- ٦ .

٢ سورة مريم: ٤٨ . ٤٩ .

٣تقدم تخريجه.

٤ صدق رحمه الله ، فلا تكاد تخلو عبادة من دعاء ، فالصلاة والحج والأذكار والجهاد كلها عبادات يُشرع فيه دعاء الله عز وجل ، فضلا عن كون الدعاء بحد ذاته عبادة مستقلة.

٥ في المطبوع: (ألا) ، وهو خطأ ظاهر ، فلعله خطأ في النسخ ، والصواب ما أثبت.

٦ سورة الجن: ٢٠ .

٧ «السيف المسلول على عابد الرسول» ، ص ١٣١ – ١٣٢ ، باختصار وتصرف يسير.

٨ رواه الترمذي (٢٥١٦) ، وأحمد (٣٠٣/١) ، وصححه الألباني.

٩ رواه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (١٧٧٢) ، وغيرهما.

١٠ الند هو المثيل والنظير.

١١ رواه البخاري (٤٤٩٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : تخرج عنق من النار يوم القيامة ، لها عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق ، يقول: إني وُكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد ، **وبكل من دعا مع الله إلها آخر** ، وبالمصورين.[1]

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي[2] رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿يسأله من في السماوات والأرض﴾[3]:

أي هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته ، وهو واسع الجود والكرم ، فكل الخلق مفتقرون إليه ، يسألونه جميع حوائجهم بحالهم ومقالهم ، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك ، وهو تعالى ﴿كل يوم هو في شأن﴾ ، يغني فقيرًا ويجبر كسيرًا ، ويعطي قوما ويمنع آخرين ، ويميت ويحيي ، ويخفض ويرفع ، لا يشغله شأن عن شأن ، ولا تُغَلِّطُه المسائل ، ولا يُبرِمُهُ[4] إلحاح الملحين ، ولا طول مسألة السائلين ، فسبحان الكريم الوهاب الذي عمَّت مواهِبه أهل الأرض والسماوات ، وعم لُطفُه جميع الخلق في كل الآنات واللحظات ، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين ، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه.[5]

---

١ رواه الترمذي (٢٥٧٤) ، وصححه الألباني.

٢ هو الشيخ العلامة المفسر الفقيه عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي ، من فحول علماء نجد ، استوطن بلدة عنيزة من مدن القصيم ، ولد عام ١٣٠٧ وتوفي عام ١٣٧٦ هجري ، تتلمذ على يده عدد من الطلبة صاروا فيما بعد من علماء المسلمين ، كالشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل ، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن البسام ، والشيخ محمد بن صالح بن عثيمين وغيرهم ، رحم الله أمواتهم وحفظ أحياءهم.

انظر ترجمته في كتاب «علماء نجد خلال ثمانية قرون» ، للشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن البسام رحمه الله.

٣ سورة الرحمٰن ، الآية ٢٩ .

٤أي يُمِلُّه ويُضجره. انظر «لسان العرب».

٥«تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان».

فصل في بيان الوجوه الخمسين لبطلان دعاء غير الله[1]

بالرُّغم من عِظم مكانة الدعاء بين سائر العبادات ؛ إلا أنه من أكثر العبادات التي شَرَّك الناس فيها بين الله وبين خلقه ، وقد وصف الله دعاء غيرِه بأنه باطل في موضعين من القرآن ؛ الموضع الأول قوله تعالى في سورة الحج ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل﴾.[2]

والموضع الثاني قوله تعالى في سورة لقمان ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾.[3]

وكذلك مدح النبي ﷺ من قال إن عبادة غير الله باطلة ، قال عليه الصلاة والسلام: أصدقُ كلمةٍ قالها الشاعر ؛ كلمة لبيد[4]:

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلُ[5]

وصدق الله ورسوله ﷺ ، فدعاء غير الله باطل من خمسين وجهاً ، هذا أوان الشروع في ذكرها ، فاللهم يسِّر وأعِن.

الوجه الأول: أن الله سبحانه أمر بأن تصرف العبادات كلها له وحده لا شريك له ، الدعاء وغيره ، فمن صرف شيئاً منها لغير الله على سبيل المشاركة أو الاستقلال فقد أشرك بالله العظيم ، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ، وقال تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ ، ونهى عباده عن أن يشركوا معه في عبادته أحدا غيره فقال ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن

---

١ قد يسر الله الكلام على آداب الدعاء وأسباب إجابته في كتاب مستقل بعنوان «التبصرة في بيان أن تحري إجابة دعاء الله تعالى عند القبور بدعة منكرة» ، وهو منشور في شبكة المعلومات ، يسر الله طبعه.

٢ آية: ٦٢ .

٣ آية: ٣٠ .

٤ هو لبيد بن ربيعة العامري ، ذكره البخاري وابن أبي خيثمة في الصحابة ، سكن الكوفة ، وتوفي في خلافة عثمان ، عاش مائة وخمسين سنة ، وقيل أكثر ، وهو القائل:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس: كيف لبيدُ

انتهى مختصرا من «فتح الباري» في شرح الحديث المذكور.

٥ رواه البخاري (٣٨٤١) ومسلم (٢٢٥٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وتمام البيت: وكل نعيم لا محالة زائل.

من الشاكرين﴾ ، وبين لنا أن الشرك أعظم الذنوب وأن الله لا يغفره إذا مات العبد عليه ، قال تعالى ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

الوجه الثاني: أن القرآن والسنة قد خصَّا الدعاء بتأكيد الإخلاص فيه ، والنهي عن صرفه لغير الله ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿**ادعوا** ربكم تضرعا وخفية﴾ ، وقال ﴿أمن يجيب المضطر إذا **دعاه** ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ ، وقال ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا **دعان**﴾ وقال تعالى ﴿**واسألوا** الله من فضله﴾ ، وقد تقدم في «فصل في الأمر بدعاء الله وحده والنهي عن دعاء غيره» تقرير أن مسألة إفراد الله بالدعاء ذُكرت في نحو ثلاثمائة موضع منوعٍ في القرآن بصيغ متعددة.[1]

الوجه الثالث: أن الله والملائكة وأولي العلم شهدوا أنه لا يستحق العبادة غير الله ، قال تعالى ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾[2] ، وشهادة أن لا إله إلا الله هي أعظم شهادة في الوجود من أعظم شاهد جل وعز ، وشهادة رب العالمين لا ينقصها شيء البتة، فلم يبق بعد هذه الآية معبود يعبده الأولون والآخرون من دون الله إلا بطلت عبادته بهذه الشهادات الثلاث.

الوجه الرابع: أن دعاء غير الله شرك أكبر مهما كانت ذريعته ، والشرك معلوم تحريمه بالضرورة من دين الإسلام وكافة الأديان ، وهو ناقض لدين الإسلام بالكلية ، قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية [3]رحمه الله في رده على من اتخذ واسطة بينه وبين الله:

---

١ وانظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في مسألة وجوب إفراد الله بالدعاء في كتابه «الأضواء» في تفسير سورة الحجرات ، الآية ٢ من عند قوله رحمه الله: المسألة الثانية وهي من أهم المسائل ...

٢ سورة آل عمران: ١٨ .

٣ هو الإمام العلامة البحر الفقيه ، شيخ الإسلام حقا ، أبو العباس ، تقي الدين ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، الحراني ثم الدمشقي ، الملقب بابن تيمية ، جدد دين الإسلام بعدما استحكمت غربته ، وأظلمت الدنيا بالبدع الكلامية وخرافات الصوفية وشركيات القبورية وإلحاد الفلاسفة والرافضة ، فجدد الدعوة للإسلام الصافي على منهاج الكتاب والسنة ، وجهر بالحق ، وناظر أهل الباطل ، وتحمل السجن في سبيل ذلك ، فكتب الله لعلمه القبول ، وسارت بمصنفاته الركبان ، وصار من بعده من علماء السنة عيالا عليه ، أما تلاميذه فصار بعضهم من أئمة الإسلام ، كابن القيم وابن

«وهذا جهل بدين الحنفاء ، فإن الحنفاء ليس بينهم وبين الله تعالى واسطة في العبادة والدعاء والاستعانة ، بل يناجون ربهم ويدعونه ويعبدونه بلا واسطة ، وكل مُصلٍّ يعبد ربه منه إليه بلا واسطة».[1]

وهذه المسألة مجمع عليها عند علماء الإسلام قاطبة ، من علماء المذاهب الأربعة وغيرهم ، فقد أجمعوا على أن دعاء غير الله شرك أكبر مخرج من ملة الإسلام ، وإجماع المسلمين حجة شرعية كما قال الرسول ﷺ : إن الله تعالى **لا يجمع أمتي على ضلالة ، ويد الله على الجماعة.**[2]

وقد حكى إجماعَهم على أن دعاء غير الله شرك أكبر مخرج من ملة الإسلام جمعٌ من العلماء ، منهم شيخ الإسلام ، أبو العباس ، أحمد بن تيمية ، رحمه الله ، حيث قال:

«سؤال الميت والغائب – نبيًا كان أو غيره – من المحرمات المنكرة **باتفاق أئمة المسلمين** ، لم يأمر الله به ولا رسوله ، ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا استحسنه أحد من أئمة المسلمين ، **وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين المسلمين**».[3]

وقال أيضا: «لم يقل أحد من علماء المسلمين إنه يستغاث بشيء من المخلوقات في كل ما يستغاث فيه بالله تعالى ، لا بنبي ولا بملَك ولا بصالح ولا غير ذلك ، بل **هذا مما يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز إطلاقه**».[4]

كثير والذهبي وابن عبد الهادي وغيرهم ، توفي رحمه الله سنة ٧٢٨ هـ ، وقد جمع بعض المحققين أقوال من ترجم له في جامع نفيس ، ووسموه بـ «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون» ، بإشراف الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله ، ونشرته دار عالم الفوائد – مكة ، فليرجع إليه من أراد الاستزادة.

١ «الاستغاثة في الرد على البكري» ، (٢/٤٧٧-٤٧٨) باختصار.

٢ رواه الترمذي (٢١٦٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وصححه الألباني ، وكذا الحاكم في «مستدركه» (١/١١٥ ، ١١٦) ، وحكى بعد روايته للحديث إجماع أهل السنة على هذه القاعدة ، وأنها من قواعد الإسلام.

٣ «الاستغاثة في الرد على البكري» ص ٣٣١ .

٤ «مجموع الفتاوى» (١/١٠٣).

وانظر ما قاله في «الفتاوى الكبرى» (٤/٥٠٦) ، (اختيارات شيخ الإسلام) ، باب حكم المرتد ، الناشر: دار القلم – بيروت.

وقال أيضا: «من جعل الملائكة والأنبياء **وسائط** ، **يدعوهم** ، ويتوكل عليهم ، ويسألهم جلب المنافع ، ودفع المضار ، مثل أن يسألهم غفران الذنب ، وهداية القلوب ، وتفريج الكروب ، وسد الفاقات ؛ **فهو كافر بإجماع المسلمين**».[1]

ونقله عنه الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب[2] من علماء الحنابلة في كتابه «تيسير العزيز الحميد» ثم قال:

«نقله[3] عنه غير واحد مقررين له ، منهم ابن مفلح في «الفروع»[4] ، وصاحب «الإنصاف»[5] ، وصاحب «الغاية»[6] ، وصاحب «الإقناع»[7] ، وشارحه[8] ، وغيرهم ، ونقله صاحب «القواطع»[1] في كتابه عن صاحب صاحب «الفروع»».

---

١ «مجموع الفتاوى» (١/١٢٤).

٢ هو العلامة الفقيه المحدث الأصولي ، حفيد إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولد سنة ١٢٠٠ هـ ، نشأ في الدرعية في وسط علمي زاخر بجهابذة العلماء ، له عدة مؤلفات ، من أشهرها كتابه «تيسير العزيز الحميد» ، وهو شرح نفيس على كتاب «التوحيد» لجده الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والكتاب على مدى ثلاث قرون ينهل منه العلماء وطلبة العلم إلى وقتنا هذا ، وهو عمدة في علم توحيد العبادة ، ومن بعده عيال عليه.

وله أيضا حاشية على كتاب «المقنع» في الفقه في ثلاث مجلدات ضخام ، وله غيرها ، توفي رحمه الله سنة ١٢٣٤ هـ وعمره ثلاث وثلاثون سنة.

انظر ترجمته موسعة في كتاب «مشاهير علماء نجد» للشيخ عبد الرحمٰن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ ، وله ترجمة في مقدمة كتابه «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» بقلم محققه: أسامة بن عطايا العتيبي.

٣ أي الإجماع على كفر من دعا غير الله.

٤ (١٥٨/٦) ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، ط سنة ١٤١٨ .

٥ أي المرداوي ، (٣٢٧/١٠) ، تحقيق: محمد حامد الفقي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٦ أي «غاية المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى» لمرعي الكرمي (٤٩٨/٢) ، تحقيق: ياسر إبراهيم المزروعي ، رائد يوسف الرومي ، الناشر: دار غراس – الكويت.

٧ (٢٨٥/٤) ، لشرف الدين ، موسى بن أحمد الحجاوي المقدسي ، تحقيق: د. عبد الله التركي ، الناشر: دار هجر – مصر.

٨ يعني الشيخ منصور بن يونس البهوتي في كتابه «كشاف القناع في شرح الإقناع» (١٦٨/٦) ، الناشر: دار الفكر ، بيروت ، ط ١٤٠٢ .

قلت[٢]: «وهو إجماع صحيح معلوم بالضرورة من الدين ، وقد نص العلماء من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم في باب حكم المرتد على أن من أشرك بالله فهو كافر ، أي عبد مع الله غيره بنوع من أنواع العبادات ، وقد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع أن دعاء الله عبادة له ، فيكون صرفه لغير الله شركا». انتهى كلام الشيخ سليمان رحمه الله.[٣]

وممن حكى أيضا إجماع العلماء على أن دعاء غير الله شرك أكبر مخرج من ملة الإسلام الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن بن حسن[٤] ، فقد ذكر أن المسلمين قد أجمعوا على تكفير من ارتكب الشرك الأكبر ، وكفَر بآيات الله ورسله ، أو بشيء منها بعد قيام الحجة وبلوغِها المعتبر ، كمن عبد الصالحين ودعاهم مع الله ، وجعلهم أندادًا له فيما يستحقه على خلقه من العبادات والإلٰهية ، وذكر أن هذا مجمع عليه بين أهل العلم والإيمان ، وأن كل طائفة من أهل المذاهب المقلَّدة يُفردون هذه المسألة بباب عظيم يذكرون فيه حكمها وما

---

١ أي أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي الشافعي ، واسم كتابه «الإعلام بقواطع الإسلام» ، وسيأتي التعريف به.

٢ لا زال الكلام للشيخ سليمان.

٣ «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» ، باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره ، ص ٤٢٧ .

٤ هو الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى ، ولد سنة ١٢٢٥ هـ ، في بلدة العلم والعلماء ؛ الدرعية ، درس على يد عدد من المشايخ ، منهم والده الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن ، وكذا ابن عمه الشيخ عبد الرحمٰن بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، والشيخ محمد بن محمود الجزائري ، مفتي الديار الجزائرية في وقته ، وغيرهم.

وبعد تضلعه في العلم ؛ تتلمذ عليه عدد من التلاميذ ، أشهرهم الشيخ الأديب الذاب عن دين الله بشعره ونظمه ؛ سليمان بن سحمان رحمه الله تعالى.

له العديد من الكتب والرسائل ، أما الكتب فأشهرها «مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام» ، وأيضا «منهاج التأسيس في كشف شبهات داود بن جرجيس».

أما الرسائل فجمعها تلميذه الشيخ سليمان في المجلد الثالث من «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» ، وبعضها مفرق في بعض المجلدات الأخرى ، وكذا يقع بعضها في «الدرر السنية من الأجوبة النجدية».

توفي رحمه الله سنة ١٢٩٣ هـ.

باختصار وتصرف من ترجمته في مقدمة كتابه «مصباح الظلام» ، والترجمة من إعداد الشيخ د. عبد العزيز بن عبد الله الزير حفظه الله.

يوجب الردة ويقتضيها ، وينصون على الشرك ، وأن ابن حجر[1] قد أفرد هذه المسألة بكتاب سماه: «الإعلام بقواطع الإسلام»[2].[3]

وقال الشيخ عبد الرحمٰن بن قاسم رحمه الله: «لا نعلم نوعًا من أنواع الكفر والردة وَرَدَ فيه من النصوص **مثل ما ورد في دعاء غير الله** ، من النهي والتحذير عن فعله ، وكُفر فاعله ، والوعيد عليه بالخلود في النار ، فما المانع من تحكيم الكتاب والسنة واتباع إجماع الأمة ، وقد أُفردت هذه المسألة بالتصنيف ، **وحكى الإجماع عليها غير واحد من أهل العلم ، وذكروا أنها من ضروريات الإسلام؟**»[4]

فصل

وللفائدة ؛ فهذه طرف من كلام بعض علماء المذاهب الأربعة في تقرير أن دعاء غير الله شرك أكبر.

كلام الحنفية

قال الشيخ محمد عابد السندي الحنفي[5] في كتابه «طوالع الأنوار شرح تنوير الأبصار مع الدر المختار» ما نصه:

«ولا يقول: (يا صاحب القبر ، يا فلان ، اقض حاجتي) ، أو: (سلها من الله) ، أو: (كن لي شفيعا عند الله) ، بل يقول: (يا من لا يشرك في حكمه أحدا ؛ اقض لي حاجتي هذه)».

---

١ أي أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي الشافعي.

٢ الكتاب طبع مستقلا ، وطبع بتحقيق د. محمد الخميس ضمن مجموع «الجامع في ألفاظ الكفر» ، الناشر: دار إيلاف – الكويت.

٣ «الدرر السنية» (١/٤٦٧-٤٦٨).

٤ «السيف المسلول على عابد الرسول» ، ص ٢٤ .

٥ هو الشيخ المحدث محمد عابد بن علي السندي ثم الأنصاري ، ولد بالسند ، ثم هاجر مع جده إلى اليمن ثم قدم المدينة، وجاور إلى أن توفي بها ، قال عنه الشوكاني: (له يد طولى في علم الطب ، ومعرفة متقنة بالنحو والصرف وفقه الحنفية وأصوله ، ومشاركة في سائر العلوم وفهم صحيح سريع) ، وقال الزركلي: (فقيه حنفي ، عالم بالحديث) ، له تصانيف عدة في الفقه والحديث ، توفي سنة ١٢٥٧ هـ ، انظر ترجمته في كتاب «البدر الطالع» للشوكاني ، و«هدية العارفين ، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين» (٢/٣٧٠) ، لإسماعيل بن محمد أمين الباباني البغدادي.

وقال الشيخ صنع الله بن صنع الله الحلبي الحنفي[1] ما نصه:

«هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدَّعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات ، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات ، وبهم تنكشف المُهمات ، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين على أن ذلك منهم كرامات!

وهذا كلام فيه تفريط وإفراط ، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السّرمدي ، لما فيه من روائح **الشرك المحقق**، ومصادرة الكتاب العزيز المصدَّق ، **ومخالفة لعقائد الأئمة ، وما أجمعت عليه هذه الأمة** ، وفي التنزيل ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[2]».[3]

وبهذا قال جمع من أئمة الحنفية المتأخرين ، كالإمام أحمد السرهندي[4] ، والإمام أحمد الرومي[5] ، والشيخ سجان بخش الهندي ، ومحمد بن علي التهانوي[1] ، ومحمد إسماعيل الدهلوي[2] ، والشيخ محمود بن عبد الله الآلوسي[3] ، وغيرهم.[4]

---

١ صنع الله بن صنع الله الحلبي المكي الحنفي ، واعظ فقيه ، محدث أديب ، له أرجوزة في الحديث ، وله كتاب مشهور في إبطال الغلو في الصالحين «سيف الله على من كذب على أولياء الله». توفي سنة ١١٢٠ هـ ، انظر «معجم المؤلفين» (٤٨٣/١) ، و «هدية العارفين» (٤٢٨/١).

٢ سورة النساء : ١١٥ .

٣ «سيف الله على من كذب على أولياء الله» ، باختصار ، (ص ١٥-١٦).

٤ انظر ترجمته في كتاب «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» (٤٣/٥ — ٥٥) ، لمؤلفه عبد الحي بن فخر الدين الحسيني ، الناشر: دار المعارف العثمانية — حيدر آباد.

٥ هو أحمد بن محمد الأقحصاري الحنفي ، ويعرف بالرومي ، من علماء الدولة العثمانية ، له تصانيف واشتغال بعلوم الشريعة ، توفي سنة ١٠٤٣ هـ ، له كتاب «حاشية على تفسير أبي السعود» ، وكذا كتاب «مجالس الأبرار ومسالك الأخيار في شرح مائة حديث من المصابيح» ، وغيرها ، انظر ترجمته موسعة في «هدية العارفين» (١٥٧/١) ، ط دار الكتب العلمية ، سنة ١٤١٣ هـ ، و «معجم المؤلفين» (٢٥٢/٢).

وكلامه في التحذير من دعاء غير الله مذكور في كتابه «مجالس الأبرار ومسالك الأخيار» ، المجلس السابع عشر والسابع والخمسين.

وقد ألف الشيخ الدكتور شمس الدين الأفغاني رحمه الله رسالة عظيمة جمع فيها أقوال علماء الأحناف في إبطال عقائد القبورية ، ومن المعلوم أن الدعاء هو أكثر فعل القبوريين عند القبور التي يعظمونها لاعتقادهم فيها ، وأسماها «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» ، تقع في ثلاث مجلدات ، نال فيها رسالة الدكتوراة العالمية ، أشار فيها إلى جهود علماء الحنفية في بيان مصدر عبادة القبور ونشأة القبورية وانتشارهم، وتحقيق أن القبورية أهل شرك ووثنية ، وجهودهم — أي علماء الحنفية – في إبطال عقائد القبورية.[٥]

ثم نقل رحمه الله مقالات جمع من علماء الحنفية في التحذير من الشرك وإبطال ثلاثين ذريعة من ذرائعه التي يتمسك بها القبورية بمُجمَلهم.[٦]

ثم ذكر رحمه الله أمثلة لغلو القبوريين في الصالحين ، وجهود علماء الحنفية في إبطاله ، فابتدأ بذكر غلوهم في النبي ﷺ ، ودعوى أنه يعلم الغيب ، وأن له تصرفا في الكون ، وأنه يسمع صوت المستغيثين ، فأبطل ذلك

---

١ باحث هندي ، له كتاب «كشاف اصطلاحات الفنون» ، انظر ترجمته في كتاب «نزهة الخواطر» (٢٧٨/٦) ، و «هدية العارفين» (٣٢٦/٢) ، و «الأعلام» للزركلي (٢٩٥/٦) ، وكلامه في ذم دعاء غير الله مذكور في كتابه «كشاف اصطلاحات الفنون» (١٤٦/٤ — ١٥٣).

٢ هو محمد بن إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي ، محدث ، من آثاره: «إنجاح الحاجة في شرح سنن ابن ماجه» ، انظر ترجمته في كتاب «نزهة الخواطر» و «معجم المؤلفين» (١٣٣/٣) ، وكلامه في ذم دعاء غير الله مذكور في كتابه «تقوية الإيمان».

٣ هو محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين الآلوسي الحسيني ، أبو المعالي ، مؤرخ عالم بالأدب والدين ، من الدعاة إلى الإصلاح في العراق ، حمل على أهل البدع برسائل فعاداه كثيرون ، له اثنان وخمسون مصنفا ، توفي رحمه الله سنة ١٣٤٢ في بغداد.

وكلامه في ذم دعاء غير الله مذكور في تفسيره الموسوم «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» ، عند الآية ٧٣ من سورة الحج.

٤ انظر أقوالهم مفصلة في الإنكار على من دعا غير الله في «المجموع المفيد في نقض القبورية ونصرة التوحيد» ، جمع د. محمد الخميس ، ص ٤١٢ — ٤١٨ ، الناشر: دار أطلس — الرياض ، وقد اكتفيت بالإحالة عليها عن نقلها مفصلة طلبا للاختصار.

٥ انظر الصفحات ٣٥٣ — ٥٦١ .

٦ انظر الصفحات ٥٦٣ — ٦٨٢ .

كله ، ثم عطف على أمثلة الغلو في غير النبي ﷺ ، كعبد القادر الجيلاني والرفاعي والبدوي وغيرهم ممن تُدَّعى له الوِلاية.[1]

وأما كلام الشافعية في باب تحريم دعاء غير الله فقد قال ابن حجر الشافعي[2] رحمه الله في «شرح الأربعين النووية» ما معناه: إن من دعا غير الله فهو كافر.[3]

وقال الشيخ أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي[4] رحمه الله:

«وشِرك الأمم كله نوعان: شرك في الإلٰهية وشرك في الربوبية ، فالشرك في الإلٰهية والعبادة هو الغالب على أهل الإشراك ، وهو شرك عُبَّاد الأصنام وعُبّاد الملائكة وعُبّاد الجن **وعُبَّاد المشايخ والصالحين الأحياء والأموات** ، الذين قالوا ﴿إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى﴾ ، ويشفعوا لنا عنده ، وينالُنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم قربٌ وكرامة ، كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة والزلفى لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته.

والكتب الإلٰهية كلها من أولها إلى آخرها تبطل هذا المذهب وترده وتقبح أهله ، وتنص على أنهم أعداء الله تعالى.

وجميع الرسل صلوات الله عليهم متفقون على ذلك من أولهم إلى آخرهم ، وما أهلك الله تعالى من أهلك من الأمم إلا بسبب هذا الشرك ومن أجله».[5]

---

١ انظر الصفحات ٦٨٣ – ٨٩٧ .

٢ هو أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي الشافعي ، فقيه مصري ، من علماء القرن العاشر ، له كتب كثيرة ، انظر ترجمته في «الأعلام» للزركلي (٢٣٤/١).

٣ نقله الشوكاني عنه في «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد» ، ص ١٢١ ، (الناشر: دار ابن خزيمة – الرياض) ، ونقله الشيخ محمد بن عبد الوهاب عنه في كتابه «مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد» ، ص ٣٠٥ ، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض.

٤ الشيخ أحمد من علماء مصر ، درس الحديث والفقه ، وانكبَّ على تدوين التاريخ ، لقبه الزركلي بمؤرخ الديار المصرية ، له أكثر من مئتي مؤلَّف ، عُرِض عليه قضاء دمشق فأبى ، توفي سنة ٨٤٥ ، انظر ترجمته في «إنباء الغِمر» ، و«البدر الطالع» للشوكاني ، و «الضوء اللامع» للسخاوي ، و «الأعلام» للزركلي» (١٧٧/١) ، و «معجم المؤلفين» (٢٠٤/١).

٥ «تجريد التوحيد المفيد» ، ص ٥٢ – ٥٣ ، تحقيق: علي بن محمد العمران ، الناشر: دار عالم الفوائد – مكة.

وأما كلام الحنابلة في باب تحريم دعاء غير الله فقد تقدم ذكر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في حكاية إجماع العلماء على أن دعاء غير الله شرك أكبر ، وهذا مزيد كلام له في هذا الباب:

«فكل من غلا في حي أو رجل صالح ، وجعل فيه نوعاً من الإلٰهية ، مثل أن يقول: كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان ما أريده ، أو يقول إذا ذبح شاة ، (باسم سيدي) ، أو يعبده بالسجود له أو لغيره ، أو يدعوه من دون الله تعالى ، مثل أن يقول: (يا سيدي فلان ، اغفر لي أو ارحمني أو انصرني أو ارزقني أو أغثني أو أجِرني ، أو توكلت عليك ، أو أنت حسبي ، أو أنا في حسْبك) ، أو نحو هذه الأقوال والأفعال التي هي من خصائص الربوبية التي لا تصلح إلا لله تعالى ؛ فكل هذا شرك وضلال ، يستتاب صاحبه ، فإن تاب وإلا قتل ، فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب لِنعبد الله وحده لا شريك له ، ولا نجعل مع الله إلٰها آخر». اهـ.[1]

وقال أيضا: «ومن قال إن ميتا من الموتى ، نفيسة أو غيرها ؛ تُجير الخائف ، وتُخلِّص المحبوس ، وهي باب الحوائج ؛ فهو ضال مشرك ، فإن الله سبحانه هو الذى يجير ولا يجار عليه ، وباب الحوائج إلى الله هو دعاؤه بصدق وإخلاص ، كما قال تعالى ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾». [2]

وقال ابن القيم[3] رحمه الله في «مدارج السالكين» في معرض كلام له عن أنواع الشرك:

---

١ «الرسالة السنية» ، وتسمى أيضا بـ «الوصية الكبرى» ، وتقع كاملة في «مجموع الفتاوى» (٣/٣٦٣-٤٣٠) ، والمنقول من ص ٣٩٥ .

٢ «مجموع الفتاوى» (٢٧/٤٩٠).

٣ هو محمد بن أبي بكر بن سعد الزُّرعي ثم الدمشقي ، المعروف بابن قيم الجوزية ، من علماء المائة الثامنة ، لازم شيخه ابن تيمية إلى أن مات سنة ٧٢٨ ، فكان من كبار تلامذته ، ثم حمل بعده لواء الدعوة والجهاد العلمي إلى أن مات سنة ٧٥١ ، كان واسع المعرفة ، قوي الحجة ، دقيق الاستنباط ، كثير المصنفات ، ومؤلفاته مقبولة عند جميع الناس ، حتى صار من بعده عيالا عليه ، نصر العقيدة الإسلامية نصرا مؤزرا ، ورد على المبتدعة نظما ونثرا ، لاسيما المتفلسفة والقبورية والمؤولة والمتصوفة ، رحمه الله رحمة واسعة ، فقد جدد هو وشيخه دين الله ، فكانا منعطفا في حياة الأمة الإسلامية. انظر ترجمته في «شذرات الذهب» لابن العماد و «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب ، ومن أجمع من ترجم له الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله في كتابه «ابن قيم الجوزية ، حياته وآثاره».

«ومن أنواعه ؛ طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم ، وهذا أصل شرك العالم ، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فضلاً عمن استغاث به وسأله قضاء حاجته ، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها ، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده كما تقدم ، فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه ، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سببا لإذنه ، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد ، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن ، وهو بمنزلة من استعان في حاجة بما يمنع حصولها ، وهذه حالة كل مشرك.

والميت محتاج إلى من يدعو له ويترحم عليه ويستغفر له ، كما أوصانا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم ، ونسأل لهم العافية والمغفرة ، فعكَس المشركون هذا ، وزاروهم زيارة العبادة واستقضاء الحوائج والاستغاثة بهم ، وجعلوا قبورهم أوثانا تعبد ، وسموا قصدها حجا ، واتخذوا عندها الوقفة وحلق الرأس ، فجمعوا بين الشرك بالمعبود الحق وتغيير دينه ، ومعاداة أهل التوحيد ، ونِسبة أهله إلى التنقص للأموات ، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك ، وأولياءه الموحدين له الذين لم يشركوا به شيئًا بذمهم وعيبهم ومعاداتهم ، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص ، إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا ، وأنهم أَمروهم به ، وأنهم يوالونهم عليه ، وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد في كل زمان ومكان ، وما أكثر المستجيبين لهم ، ولله خليله[1] إبراهيم عليه السلام حيث يقول ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيرا من الناس﴾.

وما نجا من شَرَكِ[2] هذا الشرك الأكبر إلا من جرَّد توحيد الله ، وعادى المشركين في الله ، وتقرب بمقتهم إلى الله ، واتخذ الله وحده وليّه وإلهه ومعبوده ، فجرَّد حبه لله ، وخوفه لله ، ورجاءه لله ، وذُله لله ، وتوكُّله على الله ، واستعانته بالله ، والتجاءه إلى الله ، واستغاثته بالله ، وأخلص قصده لله ، متبعا لأمره ، متطلبا لمرضاته، إذا سأل سأل الله ، وإذا استعان استعان بالله ، وإذا عمِل عمِل لله ، فهو لله وبالله ومع الله».[3]

---

١ أي: لله دَرُّ خليله.

٢ الشَّـرَكُ هو الفخ.

٣ «مدارج السالكين» ، منزلة التوبة ، ص ٦٠٥ .

وله رحمه الله في باب التحذير من تعظيم أصحاب القبور كلام طويل في كتابه النفيس «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» ، ذكر فيه الجذور التاريخية لتعظيم أصحاب القبور والغلو فيهم ، كما عرض لذكر المظاهر والعلاج ، رحمه الله رحمة واسعة.[1]

وقال الإمام أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي رحمه الله[2]: «إنَّ من يعظم القبور ويخاطب الموتى بقضاء الحوائج، ويقول: يا مولاي ويا سيدي عبد القادر: (افعل لي كذا) ؛ هو كافر بهذه الأوضاع[3] ، ومن دعا ميتا وطلب قضاء الحوائج فهو كافر».[4]

وقال أيضا: «لما صعُبت التكاليف على الجهال والطَّغَام[5] ؛ عَدَلوا[6] عن أوضاع الشـــرع[7] إلى تعظيم أوضاع وضعوها ، وضعوها لأنفسهم ، فسهُلت عليهم إذ لم يَدخلوا بها تحت أمر غيرهم ، وهم عندي كفار بهذه الأوضاع ، مثل تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع من إيقاد النيران وتقبيلها وتخليقها ، وخطاب الموتى بالحوائج ، وكَتْب الرقاع فيها: (يا مولاي ، افعل بي كذا وكذا) ، وأخْذ تربتها تبركا ، وإفاضة الطيب على القبور ، وشد الرحال إليها ، وإلقاء الخرق على الشجرة اقتداء بمن عَبَد اللات والعُزّى».[8]

---

١ ولكاتبه عفا الله عنه بحث بعنوان «تلاعب الشيطان بعقول القبوريين» ، جمع فيها كلام ابن القيم في هذه المسألة من كتابه المذكور ، ورتبه وفهرسه ، وهو منشور على صفحته في شبكة المعلومات ، نفع الله به.

٢ هو الإمام العلامة البحر ، شيخ الحنابلة ، صاحب التصانيف ، ولد سنة ٤٣١ هـ ، له كتاب «الفنون» في أربعمائة مجلد، اشتغل بعلم الكلام فوقع في تأويل بعض الصفات ، ثم أشهد على نفسه أنه تاب ، ثم صنف في الرد على مؤولة الصفات ، وله كلام في كتابه «الفنون» في ذم من خرج عن الشريعة من أهل الكلام والتصوف ، وقد نقل كلامه هذا عنه ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل» (٦١/٨ – ٦٨).

توفي رحمه الله سنة ٥١٣ هـ. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٤٤٣/١٩).

٣ الأقرب أن مقصوده بقوله «الأوضاع» أي الأفعال.

٤ نقله عنه الشيخ محمد بن سلطان المعصومي الحنفي في كتابه «حكم الله الواحد الصمد» ، ص ٤٤ ، الناشر: دار العاصمة – الرياض.

٥ الطغام هم أراذل الناس وأوغادهم. انظر «النهاية».

٦ عدَلوا أي حادوا.

٧ أوضاع الشرع أي تعاليمه التي شرعها الله تعالى للناس.

٨ نقله عنه ابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» ، ص ٣٥٢ – ٣٥٣ .

وقال الشيخ عبد الله أبابطين[1] رحمه الله: «ورأيت من جملة فتاوى للقاضي أبي يعلى[2] منها: أنه سُئل عمن يقول: (يا محمد ، يا علي) ، فقال: هذا لا يجوز لأنهما ميتان».[3]

وأما كلام المالكية في باب تحريم دعاء غير الله فقد قال الإمام محمد بن أحمد القرطبي المالكي رحمه الله في تفسيره الموسوم «الجامع لأحكام القرآن» في تفسير قوله تعالى ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[4]:

قوله تعالى ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ ، أي إن تستغيثوا بهم في النوائب لا يسمعوا دعاءكم ، لأنها جمادات لا تُبصر ولا تسمع ، إذ ليس كل سامع ناطقا.

وقال قتادة: المعنى: لو سمعوا لم ينفعوكم.

وقيل: أي لو جعلنا لهم عقولا وحياة فسمِعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم ، ولما استجابوا لكم على الكفر.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ، أي يجحدون أنكم عبدتموهم ، ويتبرءون منكم.

ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين مما يَعقل ، كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين ، أي يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقا ، وأنهم أمروكم بعبادتهم ، كما أخبر عن عيسى بقوله ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾[5].

ونقله أيضا الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه «مفيد المستفيد في حكم تارك التوحيد» ، ص ٣٠١-٣٠٢ ، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض.

١ تقدمت ترجمته.

٢ هو شيخ الحنابلة ، المفتي القاضي ، محمد بن الحسين بن محمد البغدادي الحنبلي ، ابن الفراء ، كان عالم العراق في زمنه ، له كتاب «إبطال التأويلات في أخبار الصفات» و «الرد على الجهمية» وغيرها. توفي رحمه الله سنة ٤٥٨ رحمه الله رحمة واسعة.

باختصار من «سير أعلام النبلاء» (٨٩/١٨) ، وله ترجمة في «تاريخ الإسلام» ، و«طبقات الحنابلة». لابنه محمد بن أبي يعلى الفراء.

٣ «تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس» ، ص ١٤٧ .

٤ سورة فاطر: ١٤ .

٥ سورة المائدة: ١٦ .

ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضا ، أي يحييها الله حتى تخبر أنها ليست أهلا للعبادة.
﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ، هو الله جل وعز ، أي لا أحد أَخْبر بخلق الله من الله ، فلا ينبئك مثله في عمله. انتهى.

وقال العلامة عبد الحميد بن باديس الجزائري[1] رحمه الله – وهو من متأخري المالكية – في تفسيره لقول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلٰها آخر﴾[2]:

مزيد بيان لتوحيد الرحمٰن

من دعا غير الله فقد عبده

ما يزال الذكر الحكيم يُسمي العبادة دعاء ويعبر بها عنها ، ذلك لأنه عبادة ، فعبر عن النوع ببعض أفراده ، وإنما اختير هذا الفرد ليعبر به عن النوع لأن الدعاء مخ العبادة وخلاصتها فإن العابد يُظهر ذله أمام عِزِّ المعبود ، وفقره أمام غناه ، وعجزه أمام قدرته ، وتمام تعظيمه له وخضوعه بين يديه ، ويعرب عن ذلك بلسانه بدعائه وندائه وطلبه منه حوائجه ، فالدعاء هو المظهر الدَّال على ذلك كله ، ولهذا كان مخ عبادته، وقد جاء التنبيه على هذا في السنة المطهرة ، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول

---

١ هو الشيخ الداعية عبد الحميد بن مصطفى بن مكي بن باديس ، من دعاة النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري في الجزائر ، درس على عدة مشايخ في الجزائر وتونس ، ثم انكب على التعليم والدعوة ومحاربة البدع لاسيما بدع الطرق الصوفية ، حتى إن الصوفية دبروا مكيدة لاغتياله فنجاه الله منها ، أسس جريدة الشهاب ، وكان له نشاط ظاهر في بعض المجلات الدينية ، وتخرج على يديه دعاة عدة ، منهم مبارك الميلي والفضيل الورتيلاني ومحمد سعيد الزاهري وأحمد حماني ومحمد الصالح بن عتيق ومحمد الصالح رمضان.
له مقالات جمعت فيما بعد فصارت كتبا ، منها «مبادئ الأصول» و«العقائد الإسلامية» و «التفسير أو مجالس التذكير» و «رجال السلف ونساؤه» و «جواب سؤال عن سوء مقال» رد فيه على ابن عليوة الطرقي ، وقد جمعت مقالات الشيخ في الثلاثة الأخيرة في ستة مجلدات ، وأصدرتها وزارة الشؤون الدينية الجزائرية.
بذل ابن باديس نفسه ووقته وجهده من أجل قضية تحرير الجزائر من احتلال الفرنسيين ، وأمضى عمره في التعليم والدعوة ، حتى عُـدَّ من أئمة الدعوة في المغرب العربي ، وافته المنية في ١١ربيع الثاني ١٣٥٨هـ ، رحمه الله رحمة واسعة.
مصدر الترجمة: «أصول الدعوة السلفية عند العلامة عبد الحميد بن باديس» للشيخ محمد حاج عيسى الجزائري.

٢ سورة الفرقان: ٦٨ .

الله ﷺ : (الدعاء هو العبادة) ثم قرأ ﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم﴾. رواه أحمد والترمذي وأبو داود رحمهم الله والنسائي وابن ماجه.

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (الدعاء مخ العبادة). رواه الترمذي رضي الله عنه.

فتطابق الأثر والنظر على أن الدعاء عبادة ، فمن دعا غير الله فقد عبده ، وإذا كان هو لا يسمي دعاءه لغير الله عبادة فالحقيقة لا ترتفع بعد تسميته لها باسمها وتسميته لها بغير اسمها ، والعبرة بتسمية الشرع التي عرَفناها من الحديثين المتقدمين لا بتسميته ...

تحذير وإرشاد

ما أكثر ما تسمع في دعاء الناس: (يارب والشيخ) (يا رب وناس ربي) .. وهذا من دعاء غير الله ، فإياك أيها المسلم وإياك ، وادع الله ربك وخالقك وحده وحده وحده ، وأنف الشرك راغم.

انتهى كلامه رحمه الله.[1]

وقال العلامة مبارك الميلي المالكي الجزائري[2] رحمه الله تعالى – وهو من متأخري المالكية أيضا – في كتابه «رسالة الشرك ومظاهره»:

دعاء غير الله وحكمه

دعاء غير الله .. شرك صريح وكفر قبيح ، وله نوعان:

---

١ «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير» ، ص ٢٩٩ – ٣٠٠ ، باختصار ، وهو من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية – الجزائر.

٢ هو الشيخ مبارك بن محمد الإبراهيمي الميلي ، تلقى العلم منذ صغره على جلة من المشايخ ، منهم الشيخ عبد الحميد بن باديس ، ثم صار أحد أبرز أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة ١٩٣١ ، وكان له دور دعوي بارز في الصحافة ، جاهد في سبيل الدعوة بالرغم من المضايقات التي تعرض لها أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر ، له عدة مؤلفات ، أشهرها «الشرك و مظاهره» ، توفي رحمه الله في عام ١٩٤٥ ميلادية.

مصدر الترجمة: مقدمة تحقيق كتاب «الشرك ومظاهره» للمترجم له ، تحقيق: الشيخ أبي عبد الرحمٰن محمود الجزائري ، الناشر: دار الراية – الرياض.

أحدهما: دعاء غير الله مع الله ، كالذي يقول: (يا ربي وشيخي ، يا ربي وجَدي ، يا الله وناسه ، يا الله يا سيدي عبد القادر) ، وسمعت كثيرا يحكون أنهم كثيرا ما يسمعون فلانا يقول: يا ربي يا سيدي يوسف اغفر لي ...

وإطلاق الشرك على هذا النوع واضح ، لأن الداعي عَطَفَ غير الله على الله بالواو ثابتة أو محذوفة ، وهي تقتضي مشاركة ما بعدها لما قبلها في الحكم ، والحكم المشترك فيه هنا هو عبادة الدعاء.

النوع الثاني: دعاء غير الله من دون الله ، كالذي يقول: .. (يا ديوان الصالحين).

انتهى كلامه رحمه الله.[1]

وقال أيضا: ولقد فشا في المسلمين دعاء غير الله على شدة إنكار كِتابِهم له[2] وتحذير نبيهم ﷺ منه ، حتى صار الجهلة ومن قرُب منهم يؤثرونه على دعاء الله وحده ، والاستشهاد لذلك بالحكايات عنهم واستيعابها مُمِلٌّ مُعجِز.[3]

وقال العلامة تقي الدين الهلالي المالكي[4] رحمه الله – وهو من متأخري المالكية أيضا – في كتابه «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية»:

---

١ «رسالة الشرك ومظاهره» ، ص ٢٨١ – ٢٨٢ ، باختصار ، تحقيق: الشيخ أبي عبد الرحمٰن محمود الجزائري ، راجعه الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله ، الناشر: دار الراية – الرياض.

٢ أي القرآن العظيم.

٣ «رسالة الشرك ومظاهره» ، ص ٢٨٦ .

٤ هو العلامة المحدث واللغوي الشهير والشاعر الفحل والرحالة المغربي الشيخ السلفي الدكتور محمد التقي المعروف بمحمد تقي الدين الهلالي ، درس على جملة من المشايخ ، منهم الشيخ عبد الظاهر أبو السمح والشيخ رشيد رضا بمصر ، ثم مكث بها سنة يدعو إلى عقيدة السلف و يحارب الشرك و الإلحاد ، ثم سافر للهند فطلب الحديث على الشيخ المحدث عبد الرحمٰن بن عبد الرحيم المباركفوري صاحب «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» ، ودرس على غيره أيضا في العراق، ثم تدرج في سلسلة أعمال علمية ودعوية إلى أن عمل أستاذاً بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية إلى سنة ١٩٧٤م، ثم رجع إلى بلده المغرب ومكث يدعو فيها إلى التوحيد والسنة إلى أن توفاه الله يوم الإثنين ٢٥ شوال ١٤٠٧هـ.

له ما يربو على عشرين مؤلفا في العقيدة والفقه ، منها «القاضي العدل في حكم البناء على القبور» ، و «العلم المأثور والعلم المشهور واللواء المنشور في بدع القبور» ، فرحمه الله رحمة واسعة.

فتبين لك أيها القارئ الموفق أن الاستغاثة دعاء ، والدعاء مخ العبادة ، ومن استغاث بغير الله فقد أشرك وعبد مع الله غيره ، ومن زعم أنه هو أو غيره من المخلوقين قادرٌ أن يُغيث من استغاث به ويجيب المضطر ويكشف السوء ويجعل الناس خلفاء في الأرض فقد اتخذ مع الله إلها آخر بنصوص القرآن والسنة ، انظر آيات النمل من قوله تعالى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ * قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ءإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ءإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ءإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ءإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ءإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ من آية ٥٨– ٦٤ ذكر الله تعالى في هذه الآيات أمورا خاصة به لا يقدر عليها غيره ، منها إجابة المضطر وكشف السوء وتولية المناصب والهداية في ظلمات البر والبحر وإرسال الرياح فمن نسب شيئا من هذه الأمور إلى مخلوق أنه هو الفاعل لها بغير طريق الأسباب **فقد أشرك بالله** وعبد معه غيره.

واعلم أنه يجب على كل مسلم أن يوحد الله في ربوبيته وفي عبادته وفي أسمائه وصفاته ، فهـذه أنواع التوحيد الثلاثة ، من أخلّ بها أو بشيء منها فهو كافر.[1]

وقال العلامة الشيخ المفسر محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي[2] رحمه الله – وهو من متأخري المالكية أيضا – في تفسير قوله تعالى ﴿ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾[1]:

---

١ «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية» ، ص ٦١ .

٢ هو الشيخ العلامة الأصولي المفسر ، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، من علماء القرن الرابع عشر المبرزين ، كان غزير العلم ، متوقد الذكاء ، ذو حافظة نادرة ، له نحو عشرين كتابا ، أكثرها في التفسير والفقه والعقيدة ، أشهرها ذكرا «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» ، و «مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر» ، وقد جمعت مؤلفاته في موسوعة علمية واحدة بعنوان «آثار الشيخ محمد الأمين الشنقيطي». توفي رحمه الله عام ١٣٩٣ هـ . باختصار من ترجمته المذكورة في مقدمة كتاب «الأضواء» ، الناشر: دار عالم الفوائد – مكة.

وأعظم الكافرين كفراً هو من يدعو مع الله إلٰها آخر لا برهان له به ، ونفي الفلاح عنه يدل على هلاكه وأنه من أهل النار ، وقد حذر الله من دعاء إله معه في آيات كثيرة كقوله ﴿ولا تجعلوا مع الله إلٰها آخر إني لكم منه نذيرً مبين﴾ ، وقوله ﴿ولا تدعُ مع الله إلٰها آخر لا إله إلا هو كل شئ هالكٌ إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ ، وقوله تعالى ﴿لا تجعل مع الله إلٰها آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾ ، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً. انتهى.

وقال أيضا رحمه الله في تفسير الآية الثانية من سورة الحجرات:

«اعلم أن من الحقوق الخاصة بالله التي هي من خصائص ربوبيته ؛ اتجاه عبده إليه إذا دهمته الكروب التي لا يقدِر على كشفِها إلا الله ، فالتجاء المضطر الذي أحاطت به الكروب ودهمته الدواهي **لا يجوز إلا لله وحده** ، لأنه من خصائص الربوبية ، فصرْف ذلك الحق لله وإخلاصه له هو عين طاعة الله ومرضاته وطاعة رسوله ﷺ ومرضاته ، وهو عين التوقير والتعظيم للنبي ﷺ ، لأن أعظم أنواع توقيره وتعظيمه هو اتباعه والاقتداء به في إخلاص التوحيد والعبادة له وحده جل وعلا.

وقد بين جل وعلا في آيات كثيرة من كتابه أن اتجاه المضطر من عبادِه إليه وحده في أوقات الشدة والكرب من خصائص ربوبيته تعالى». انتهى.[٢]

وبهذا انتهى النقل عن علماء المذاهب الأربعة.

ولغير واحد من العلماء المحققين ممن لا ينتسب إلى مذهب معينولغير العلماء المنتسبين لأي من المذاهب الأربعة كلام واضح وصريح في تحريم دعاء غير الله ، فقد قال الإمام محمد بن علي الشوكاني[٣] في كتابه «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد»:

---

١ سورة المؤمنون: ١١٧ .

٢ انظر تفسيره الموسوم «أضواء البيان».

٣ هو الشيخ الفقيه الأصولي محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، اليمني ، درس على شيوخ كثر في فنون كثيرة ، وألف كتبا كثيرة منها «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول» ، وطُبع له مجموع فتاوى بعنوان «الفتح الرباني في فتاوى الشوكاني» ، وفي التفسير له كتاب «فتح القدير» ، ورد على أرباب القول باتحاد الخالق والمخلوق في كتاب «الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد» ، وغيرها من الكتب والرسائل التي بلغت ١١٤ مؤلفا ، توفي رحمه الله سنة ١٢٥٠ . انظر ترجمته لنفسه في «البدر الطالع» ، وانظر «الأعلام» للزركلي (٢٩٨/٦).

«اعلم أن الرزية كل الرزية ، والبلية كل البلية ؛ أمرٌ غير ما ذكرنا – من التوسل المجرد والتشفع بمن له الشفاعة – وذلك ما صار يعتقده كثير من العوام وبعض الخواص في أهل القبور ومن المعروفين بالصلاح من الأحياء ، من أنهم يقدِرون على ما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله ، ويفعلون ما لا يفعله إلا الله عز وجل ، حتى نطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم ، **فصاروا يدعونهم تارة مع الله ، وتارة استقلالا ، ويصرخون بأسمائهم** ، ويعظمونهم تعظيم من يملك الضر والنفع ، ويخضعون لهم خضوعا زائداً على خضوعهم عند وقوفهم بين يدي ربهم في الصلاة والدعاء ، **وهذا إذا لم يكن شركا فلا ندري[1] ما هو الشرك ، وإذا لم يكن كفرا فليس في الدنيا كفر**». انتهى.[2]

وأختم هذا الباب بكلام نفيس جامع لسماحة الإمام الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز[3] رحمه الله في هذه المسألة ، قال:

لا ريب أن الدعاء من أهم أنواع العبادة وأجمعها ، فوجب إخلاصه لله وحده كما قال عز وجل ﴿فَادْعُوا اللَّهَ

---

١ في المطبوع : (تدري) ، وأظنه تصحيفا.

٢ ص ٢٢ – ٢٣ ، تحقيق: محمد علي الحلبي ، دار الفتح – الشارقة.

٣ هو الشيخ الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، شيخ الإسلام في وقته ، ملأ الدنيا علما وفقها ومساجد ومشاريع علمية ، تخرج على يده جم غفير من طلبة العلم ، غالب من خلفه من علماء المملكة العربية السعودية وطلابها وقضاتها عيالٌ عليه ، شغل منصب نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية عند افتتاحها ، ثم ترأسها بعد سنة ، فكانت منذ افتتاحها ولا زالت دوحة علمية ، يستفيد منها طلاب العلم الذين يأتونها من أنحاء الدنيا ، وبعضهم قد صار في مصافِّ العلماء في بلادهم ، له مجموع فتاوى يقع في ثلاثين مجلدا ، وله كتب ورسائل كثيرة ، وهو معروف بكثرة الشفاعات للناس ، ومساعدتهم لقضاء حوائجهم ، وهو معروف أيضا بالنصح لكل مسلم مهما كان مقامه ، بل حتى رؤساء الحكومات الكافرة قد بلغهم نصحه ، والكلام في آثاره العلمية والدعوية والتربوية يطول جدا.

أُلِّفت في سيرته تراجمُ عدة ، منها «عبد العزيز بن باز ، عالم فقدته الأمة» لمستشاره د. محمد بن سعد الشويعر ، وكذلك «جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله» لمدير مكتبه الشيخ محمد بن موسى الموسى.

توفي رحمه الله في مستهل عام ١٤٢٠ عن تسعين عاما ، فاهتزت الدنيا لموته ، ودخل الحزن بيوت المسلمين عامة ، واجتمع للصلاة عليه الأمراء والوزراء والعلماء والقضاة وطلبة العلم والمثقفون والعامة ، وصُلّي عليه في المسجد الحرام ، وسار في جنازته ما يربو على المليون مسلم ، وشُغِلت الصحف بخبر وفاته زمنا ليس بالقليل ، أما المراثي الشعرية والنثرية التي أُلِّفت فيه فحدث ولا حرج.

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُون﴾[1] ، وقال عز وجل ﴿وَأَنَّ المَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾[2] ، وهذا يعم جميع المخلوقات من الأنبياء وغيرهم ، لأن "أحد" نَكِرَة في سياق النهي ، فتَعُمُّ كلَّ من سِوى الله سبحانه ، وقال تعالى ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾[3] ، وهذا خطاب للنبي ﷺ ، ومعلوم أن الله سبحانه قد عصمه من الشرك ، وإنما المراد من ذلك تحذير غيره ، ثم قال عز وجل ﴿فإن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِين﴾[4] ، فإن كان سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام لو دعا غير الله يكون من الظالمين فكيف بغيره؟ والظلم إذا أُطلق يراد به الشرك الأكبر كما قال الله سبحانه ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[5] ، وقال تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[6].

فعُلِم بهذه الآيات وغيرها أن دعاء غير الله من الأموات والأشجار والأحجار والأصنام وغيرها شرك بالله عز وجل ينافي العبادة التي خَلَقَ الله الثقلين من أجلها ، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لبيانها والدعوة إليها ، وهذا هو معنى لا إله إلا الله ، فإن معناها: لا معبود بحق إلا الله ، فهي تنفي العبادة عن غير الله وتثبتها لله وحده ، كما قال سبحانه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ﴾[7] ، وهذا هو أصل الدين وأساس المِلَة ولا تصح العبادات إلا بعد صحة هذا الأصل كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾[8] ، وقال سبحانه ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[9].

ودين الإسلام مبني على أصلين عظيمين أحدهما: أن لا يُعبدَ إلا الله وحده ، والثاني ألاَّ يُعبَد إلا بشريعة نبيه ورسوله محمد ﷺ ، وهذا هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن دعا الأموات من الأنبياء و غيرهم أو دعا الأصنام أو الأشجار أو الأحجار أو غير ذلك من المخلوقات أو استغاث بهم أو

---

١ سورة غافر: ١٤ .

٢ سورة الجن: ١٨ .

٣ سورة يونس: ١٠٦ .

٤ سورة يونس: ١٠٦ .

٥ سورة البقرة: ٢٥٤ .

٦ سورة لقمان: ١٣ .

٧ سورة الحج: ٦٢ .

٨ سورة الزمر: ٦٥ .

٩ سورة الأنعام: ٨٨ .

تقرب إليهم بالذبائح و النذور أو صلى لهم أو سجد لهم ؛ فقد اتخذهم أرباباً من دون الله وجعلهم أنداداً له سبحانه.

وهذا يناقض هذا الأصل و ينافي معنى لا إله إلا الله ، كما أن من ابتدع في الدين ما لم يأذن به الله لم يحقق معنى شهادة أن محمداً رسول الله ، وقد قال الله عز وجل ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾[1] ، وهذه الأعمال هي أعمال من مات على الشرك بالله عز و جل ، و هكذا الأعمال المبتدعة التي لم يأذن بها الله فإنها تكون يوم القيامة هباءً منثوراً لكونها لم توافق شرعه المطهر ، كما قال النبي ﷺ : من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد. متفق على صحته.[2]

ثم قال رحمه الله: وقد أمر الله عز وجل بدعائه سبحانه ، ووعد من يدعوه بالاستجابة ، وتوعد من استكبر عن ذلك بدخول جهنم ، كما قال عز وجل ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3] ، أي صاغرين ذليلين ، وقد دلت الآية الكريمة على أن الدعاء عبادة ، وعلى أن من استكبر عنه فمأواه جهنم ، فإذا كانت هذه حال من استكبر عن دعاء الله فكيف تكون حال من دعا غيره وأعرض عنه؟

وهو سبحانه القريب المجيب المالك لكل شيء والقادر على كل شيء ، كما قال سبحانه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾[4].

وقد أخبر الرسول في الحديث الصحيح أن **الدعاء هو العبادة** ، وقال لابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: **اِحْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، اِحْفَظِ اللهَ تجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ.** أخرجه الترمذي وغيره.[5]

وقال ﷺ: منْ مات وهو يدعُو من دون الله نداً دخلَ النار.[6]

---

١ سورة الفرقان: ٢٣ .

٢ رواه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها.

٣ سورة غافر: ٦٠ .

٤ سورة البقرة: ١٨٦ .

٥ تقدم تخريجه.

٦ رواه البخاري (٤٤٩٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه سُئِل: أيُّ الذَّنبِ أعظمُ عندَ الله؟

قال: **أن تجعلَ للَّهِ ندًّا وهوَ خَلَقَكَ.**[1]

والند هو النظير والمثيل.

فكل من دعا غير الله أو استغاث به أو نذر له أو ذبح له أو صرف له شيئا من العبادة سوى ما تقدم فقد اتخذه ندا لله ، سواء كان نبياً أو ولياً أو ملكاً أو جنياً أو صنماً أو غير ذلك من المخلوقات.

أما سؤال الحي الحاضر ما يقدر عليه والاستعانة به في الأمور الحسية التي يقدر عليها فليس ذلك من الشرك، بل ذلك من الأمور العادية الجائزة بين المسلمين ،كما قال تعالى في قصة موسى ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾[2] ، وكما قال تعالى في قصة موسى أيضا ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّب﴾[3] ، وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب وغيرها من الأمور التي تَعرِض للناس ويحتاجون فيها إلى أن يستعين بعضهم ببعض.

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يبلغ الناس أنه لا يملك لأحد نفعاً أو ضراً ، فقال تعالى في سورة الجن ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً * قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَراً وَلاَ رَشَداً﴾[4] ، وقال تعالى في سورة الأعراف ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَراً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[5].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وهو ﷺ لا يدعو إلا ربه ، ولا يستغيث إلا به ، و كان في يوم بدر يستغيث بالله ويستنصره على عدوه ويُلِح في ذلك ويقول: "**يا ربِّ أنجز لي ما وعدتني**" ، حتى قال الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه: "حَسبُك يا رسول الله ، فإن الله مُنجِز لك ما وعدك"[6] ، وأنزل الله سبحانه في ذلك قوله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ

---

١ رواه البخاري (٤٧٦١) ومسلم (٨٦) ، واللفظ له ، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

٢ سورة القصص: ١٥ .

٣ سورة القصص: ٢١ .

٤ سورة الجن: ٢٠ – ٢١ .

٥ سورة الأعراف: ١٨٨ .

٦ انظر الحديث في صحيح البخاري (٢٩١٥) وصحيح مسلم (١٧٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنه.

فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ المِلائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] ، فذكّرهم سبحانه في هذه الآيات استغاثتهم به ، وأخبر أنه استجاب لهم بإمـــدادهم بالملائكة ، ثم بين سبحانه أن النصر ليس من الملائكة ، وإنما أمدهم به للتبشير بالنصر والطمأنينة ، وبين أن النصر من عنده فقال ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[2] ، وقال عز وجل في سورة آل عمران ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3] ، فبين في هذه الآية أنه سبحانه هو الناصر لهم يوم بدر ، فعُلم بذلك أن ما أعطاهم من السلاح والقوة ، وما أمدهم به من الملائكة ؛ كل ذلك من أسباب النصر والتبشير والطمأنينة ، وليس النصر منها ، بل هو من عند الله وحده.[4] وحده.[4] انتهى كلام الشيخ ابن باز رحمه الله.

قال مقيده عفا الله عنه: فجزى الله أهل العلم المخلصين لله خير الجزاء على تبيينهم للناس أصل دينِهم وهو توحيد العبادة ، فإنهم كما قال الشيخ عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم في مقدمة الكتاب الذي جمعه «الدرر السنية من الفتاوى النجدية»:

وقد صنَّف العلماء في كل عصر ومصر ، في الأصول والفروع وغيرها مما لا يحصى ، حفظا للدين والشريعة وأقول أهل العلم ، وليكون آخر الأمة كأولها في العلم والعمل والتزام أحكام الشريعة وإلزام الناس بها ، لأن ضرورتهم إلى ذلك فوق كل ضرورة ، ولولا ذلك لجرى على ديننا ما جرى على الأديان قبله ، فإن كل عصر لا يخلو من قائل بلا علم ، ومتكلم بغير إصابة ولا فهم.[5]

الوجه الخامس من وجوه بطلان دعاء غير الله أن عبادة غير الله انحراف عن الفطرة التي خلق الله الناس عليها وهي عبادة الله وحده ، والدعاء نوع من أنواع العبادة ، بل هو لبُّها وخالصُها وروحُها ، فإن الله خلق الناس حنفاء كلهم ، والحنيف هو المائل ، أي المائل عن الشرك إلى التوحيد ، ثم أتتهم شياطين

---

١ سورة الأنفال: ٩ – ١٠ .

٢ سورة آل عمران: ١٢٦ .

٣ سورة آل عمران: ١٢٣ .

٤ انظر «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (١٠٨/٢) ، الناشر: دار القاسم – الرياض.

٥ «الدرر السنية» (٢١/١).

الإنس والجن فاجتالتهم[1] عن التوحيد إلى الشرك ، كما قال النبي ﷺ: ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا ، كل مال نحلته[2] عبداً حلال ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم[3] ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أحللتُ لهم ، **وأمرَتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا**.[4]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه ، كما تُنتج[5] البهيمة بهيمة جمعاء[6] هل تُحِسُّون[7] فيها من جدعاء[8]؟ ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه عنه ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ الآية.[9]

فشبَّه رسول الله ﷺ المولود الذي يولد على فطرة التوحيد ثم يحرفه أهله إلى الشرك بالبهيمة التي جدع أهلها أذنها – أي قطعوها – بعد أن ولدت لا جدَع فيها ، وإذا كان اليهود والنصارى والمجوس يدعون غير الله ، فالفطرة عكس ذلك ، وهي دعاء الله وحده ، وهو المطلوب.

ومما يدل على أن دعاء الله وحده هو مقتضى الفطرة ؛ أن الداعين لغير الله ينسون من يدعونهم وقت الشدائد تماما ، ويتجهون لدعاء الله وحده ، **فالفطرة تدعوهم لدعاء الله وحده اضطرارا** ، فدل هذا على بطلان ضده وهو دعاء غير الله ، قال تعالى عن المشركين الأولين ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم

---

١ أي حوّلتهم. انظر «القاموس المحيط».

٢ أي وهبتُه.

٣ أي على الحنيفية وهي عبادة الله وحده.

٤ رواه مسلم (٢٨٦٥) عن عياض المجاشعي رضي الله عنه.

٥ تُنتِج أي تلد.

٦ جمعاء أي سليمة من العيوب ، مجتمعة الأعضاء كاملتها ، لا جدْعَ فيها – أي قطع – ولا كيْ.

٧ تُحِسُّون من الإحساس ، أي العلم بالشي. قاله ابن حجر في شرح الحديث رقم (١٣٨٥).

٨ الجدْعُ هو القطع ، يقال عبد مجدع الأطراف أي مُقطَّع الأطراف ، والمقصود أن البهيمة تكون سليمة حتى يُتعرض لها بقطعٍ ، والجدْعُ أكثرَ ما يستعمل في الأنف. انظر «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير رحمه الله.

٩ رواه البخاري (١٣٥٨) ، ومسلم (٢٦٥٨).

قد أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾.

وقال أيضًا سبحانه في سورة الأنعام ﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين * بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾.

ولما أقبل أبرهة على مكة وهرب أهلها منها خوفاً منه ؛ قام عبد المطلب – جد النبي ﷺ – ونفرٌ من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة ، فأخذ عبد المطلب بحلقة باب الكعبة وهو يقول:

يا رب لا أرجو لهم سواك		يا رب فامنع منهم حماك
إن عدو البيت من عاداك		امنعهم أن يُخرِبوا قُراك[1]

تنبيه:

كان المشركون الأولون إذا أصابتهم شدة دعوا الله وحده ، وإذا كانوا في رخاء دعوا غير الله ، أما مشركو زماننا فإنهم أسوء حالا من المشركين الأولين ، فإنهم يدعون غير الله في الرخاء والشدة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد ذكر الشيخ صديق حسن خان[2] رحمه الله ، وهو من علماء القرن الثالث عشر ، في كتابه «رحلة الصديق إلى البيت العتيق» قصة تتعلق بهذا الموضوع حصلت له لما ذهب للحج عن طريق البحر وفيها:

---

١ قُرى بالضم جمع قرية وهي البلد ، وإن كانت بالكسر فالمقصود مكان الضيافة ، لكون مكة تستضيف الناس من مشارق مشارق الأرض ومغاربها ، والله أعلم.

والقصة رواها ابن جرير في «تفسير» في تفسير سورة الفيل ، وكذا ابن إسحاق في «السيرة» بنحو لفظ هذه الأبيات.

٢ هو الإمام العلامة المحقق محيي السنة وقامع البدعة ، أبو الطيب ، صديق بن حسن بن علي لطف الله القِنَّوجي ، نزيل بهوبال بالهند وأميرها ، له مؤلفات كثيرة ، منها «الدين الخالص» ، توفي سنة ١٣٠٧ ، وكلامه في تقرير العلو مذكور في كتابه «قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر» ، ص ٥٠ – ٥٣ ، بتحقيق د. عاصم بن عبد الله القريوتي ، (الناشر: عالم الكتب – بيروت) ، وقد اقتبست ترجمة الشيخ صديق منه.

ومن العجائب التي لا ينبغي إخفاؤها أن الملاحين إذا ترددوا في أمر المركب من جمود الريح ، أو هبوبها مخالِفة[1] ، أو شيئا من الخوف على السفينة وأهلها ، كانوا يهتفون باسم الشيخ عيدروس وغيره من المخلوقين مستغيثين ومستعينين به ، ولم يكونوا يذكرون الله عز وجل أبدا ، أو يدعونه بأسمائه الحسنى ، وكنت إذا سمعتهم ينادون غير الله ويستعينون بالأولياء خفت على المركب خوفا عظيما من الهلاك ، وقلت في نفسي: ياالله العجب ، كيف يصل هذا المركب بأهله إلى ساحل السلامة ، فإن مشركي العرب قد كانوا لا يذكرون آلهتهم الباطلة في مثل هذا المقام ، بل يدعون الله تعالى وحده غير مشركين به ، كما حكى عنهم سبحانه في محكم كتابه المبين ، ﴿وإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ ، وهؤلاء القوم الذين يسمون أنفسهم (المسلمين) يدعون غير الله ويهتفون بأسماء المخلوقين ، ولقد صدق الله تعالى فيما قال ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾.[2]

الوجه السادس: ومن وجوه بطلان دعاء غير الله **أن هذا الفعل هو فِعْلُ المشركين الذين بعث فيهم الرسول ﷺ سواء بسواء** ، فقد كان المشركون يدعون الأنبياء ويدعون الملائكة ويدعون الصالحين وغيرهم ، ويقولون: هؤلاء يقربوننا ويشفعون لنا عند الله ، قال الله تعالى عنهم ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون **هؤلاء شفعاؤنا عند الله** قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

وقال تعالى عنهم في سورة الزمر ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ ، فانظر كيف حكم عليهم بالشرك في الآية الأولى ، وبالكفر في الآية الثانية.

بل إن دعاء غير الله تعالى هو فعل جميع أصناف المشركين قاطبة في الماضي والحاضر ، من لدن نوح إلى يومنا هذا ، مرورا بقوم إبراهيم الذين كانوا يدعون الأصنام ، والنصارى الذين يدعون عيسى وأمه ، وكذلك البوذيون والهنادكة وغيرهم من الوثنيين.

وقد وقع في هذا اللون من الانحراف فئام ممن ينتسبون لدين الإسلام ، وأشهرهم ثلاث طوائف:

---

١ أي مخالفة لاتجاه السفينة.

٢ ص ١٧١ ، ط ٣ ، سنة ١٤٠٤ هـ ، الناشر: دار ابن القيم – الدمام.

الأولى الرافضة ، الذين غلو في تعظيم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبعض آل بيت النبي ﷺ ، حتى آل بهم الأمر إلى دعائهم وطلب الحاجات منهم ، وهم الآن يحجون إلى قبر علي في كربلاء ، ويسألونه الحاجات من رزق وولد كما يسألون الله تعالى ، قبَّحهم الله.

والطائفة الثانية غلاة الصوفية ، الذين غلوا في تعظيم من وصفوهم بالأولياء والأقطاب ، ويدعونهم لكشف الكربات وإغاثة اللهفات.

والطائفة الثالثة القبورية ، الذين يأتون إلى قبور بعض الصالحين ، وربما إلى قبر النبي ﷺ ، ويدعونهم كما يدعون الله ، ويأتون أيضا إلى بعض القبور المنسوبة لبعض آل بيت النبي ﷺ ، وهذا شرك في العبادة ، وخروج من دين الإسلام ، عياذا بالله.

أقول: والمعبودات التي تُعبد من دون الله ستُكذِّب عابديها يوم القيامة في زعمهم أنها تُقربهم إلى الله ، فأي خُذلان بعد هذا الخذلان ، قال تعالى ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول ءأنتم أضلتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل * قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا * **فقد كذبوكم بما تقولون** فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا﴾[1] ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾ ، أي فقد كذَّبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يُقرِّبونكم إلى الله زلفى ... وقوله ﴿فما تستطيعون صرفا ولا نصرا﴾ أي لا يقدِرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسِهم. اهـ.

الوجه السابع: أنَّ دعاء غير الله من الأنبياء والصالحين لو كان صواباً لأمَر به الله – تعالى الله عن ذلك – ولَفَعله النبي ﷺ وصحابتُه رضي الله عنهم – حاشاه وصحابته من ذلك – ، لأنهم أحرص الناس على الخير وأعلمهم بالحق ، وقد رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأعدّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وفيهم الخلفاء الأربعة ، وفيهم أهل بيته ، وفيهم المشهود لهم بالجنة ، وفيهم الذين غفر الله لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر ، ومع هذا فلم يحصل منهم بتاتا أن دعوه وطلبوا الحاجات منه ، بل لم يرد عن

---

١ سورة الفرقان: ١٧ – ١٩ .

أحد ممن جاء بعدهم من أهل القرون الثلاثة المفضلة أثر صحيح أو حسن يُثبِت أنهم كانوا إذا كانت لهم حاجة قصدوا القبور.

قال ابن تيمية رحمه الله: «والمؤمن يرجو ربه ويخافه ويدعوه مخلصاً له الدين ، وحق شيخه عليه أن يدعو له ويترحم عليه ، فإن أعظم الخلق قدراً هو رسول الله ﷺ ، وأصحابه أعلم الناس بأمره وقدره وأطوع الناس له ، **ولم يكن يأمر أحدًا منهم عند الفزع والخوف أن يقول: يا سيدي يا رسول الله ، ولم يكونوا يفعلون ذلك لا في حياته ولا بعد مماته** ، بل كان يأمرهم بذكر الله ودعائه والصلاة والسلام عليه ﷺ ، قال الله تعالى ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾».[1]

وقال أيضا: «سؤال الميت والغائب – نبياً كان أو غيره – من المحرمات المنكرة **باتفاق أئمة المسلمين** ، لم يأمر الله به ولا رسوله ، **ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا استحسنه أحد من أئمة المسلمين ، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين المسلمين** ، فإن أحداً منهم ما كان يقول إذا نزلت به تِرةٌ[2] أو عرضت له حاجة لميت: يا سيدي فلان أنا في حسبك ، أو اقض حاجتي ، كما يقول بعض هؤلاء المشركين لمن يدعونهم من الموتى والغائبين ، ولا أحداً من الصحابة استغاث بالنبي ﷺ بعد موته ، ولا بغيره من الأنبياء لا عند قبورهم ولا إذا بعدوا عنها ، وقد كانوا يقفون تلك المواقف العظام في مقابلة المشركين في القتال ، ويشتد البأس بهم ويظنون الظنون ، ومع هذا لم يستغث أحد منهم بنبيٍّ ولا غيره من المخلوقين ، بل ولا أقسموا بمخلوق على الله أصلاً ، ولا كانوا يقصدون الدعاء عند قبور الأنبياء ، ولا الصلاة عندها».[3]

وقال ابن القيم رحمه الله:

«فهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهل القبور بضعا وعشرين سنة حتى توفاه الله تعالى ، وهذه سنة خلفائه الراشدين ، وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، هل يمكن بشر على وجه الأرض أن يأتي عن أحد منهم بنقل صحيح أو حسن أو ضعيف أو منقطع أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا

---

١ «مجموع الفتاوى» (٢٧/٨٧-٨٨).

٢ تِرة أي نقص.

٣ «الاستغاثة في الرد على البكري» ص ٣٣١ – ٣٣٢ .

القبور فدعوا عندها وتمسحوا بها ، فضلا عن أن يصلوا عندها ، أو يسألوا الله بأصحابها ، أو يسألوهم حوائجهم؟

فليوقِفونا على أثر واحد ، أو حرف واحد في ذلك».[1]

الوجه الثامن: أن الذي يتوجه إلى غير الله بالعبادة والدعاء قد ساوى هذا المعبود بالله عز وجل في الحب والتعظيم ، وشبّهه به ، لكونه توجه له كما توجه لله ، وهذه المساواة والتشبيه هي حقيقة الشرك ومعناه ، وقلبه وقالبه ، قال تعالى مبينا حقيقة فعل الكفار ﴿ثم الذين كفروا بربهم **يعدِلون**﴾[2] ، أي يجعلون له معادلاً ومساويًا ، وقال تعالى عنهم وهم يذكرون حالهم في الدنيا وهم في النار ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين﴾[3] ، قال الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي في تفسير هذه الآية: «في العبادة والمحبة والخوف والرجاء ، وندعوكم كما ندعوه ، فتبين لهم حينئذ ضلالهم ، وأقروا بعدل الله في عقوبتهم ، وأنها في محلها ، وهم لم يُسوُّوهم برب العالمين إلا في العبادة». انتهى.[4]

ومساواة الله بخلقه باطلة ، لأن الله ليس له كفؤ ولا ند ، ولا مثيل ولا نظير ، قال تعالى ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ ، وقال ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ أي أمثالا ونظراء.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

«وأما الشرك فهو نوعان: أكبر وأصغر.

فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه ، وهو أن يتخذ من دون الله نداً ، يحبه كما يحب الله ، وهو الشرك الذي يتضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين ، ولهذا قالوا لآلهتهم في النار ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين﴾ ، مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء ، وربه ومليكه ، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت ، وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم ، **بل كلهم يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله ، وكثير منهم – بل أكثرهم – يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله ، ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذُكر الله وحده ،**

---

١ «إغاثة اللهفان» ، ص ٣٦٧ – ٣٦٨ .

٢ سورة النحل: ١ .

٣ سورة الشعراء: ٩٧ – ٩٨ .

٤ «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان».

ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم من المشايخ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحدهم رب العالمين، وإذا انتهكت حرمة من حرمات آلهتهم ومعبوداتهم غضبوا غضب الليث إذا حَرَد[1] **، وإذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها!** بل إذا قام المنتهِك لها بإطعامهم شيئاً رضوا عنه ولم تتنكر له قلوبهم ، وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة.

وترى أحدَهم قد اتخذ ذِكْرَ إلٰههُ ومعبوده من دون الله على لسانه ديدنا له إن قام وإن قعد ، وإن عثر وإن مرض ، وان استوحش ، فذِكر إلٰهه ومعبوده من دون الله هو الغالب على قلبه ولسانه ، وهو لا ينكر ذلك ، ويزعم أنه باب حاجته إلى الله ، وشفيعه عنده ، ووسيلته إليه ، **وهكذا كان عُباد الأصنام سواء.**

وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم ، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم ، **فأولئك كانت آلهتهم من الحجر ، وغيرهم اتخذوها من البشر** ، قال الله تعالى عن أسلاف هؤلاء المشركين ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون﴾.

ثم شهد عليهم بالكفر والكذب ، وأخبر أنه لا يهديهم فقال ﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾.

فهذه حال من اتخذ من دون الله ولياً يزعم أنه يقربه إلى الله ، **وما أعزَّ**[2] **من يخلُص من هذا ، بل ما أعزَّ من لا يعادي من أنكره».**[3]

وقال أيضا رحمه الله:

فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلٰهية ، فإن من خصائص الإلٰهية التفرد بملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده ، فمن علَّق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعل ما لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فضلاً عن غيره ، شبيهاً لمن له الأمر كله ، فأزِمَّة الأمور كلها بيديه ، ومرجعها إليه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، بل إذا فَتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد ، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد ، فمِن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات.

---

١ حَرَدَ أي غضِبَ . انظر «لسان العرب».

٢ أي ما أقل.

٣ «مدارج السالكين» (١/٥٩٤ – ٥٩٥).

ومن خصائص الإلٰهية الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوبة والتوكل والاستعانة ، وغاية الذل مع غاية الحب ، كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرةً أن يكون له وحده ، ويمتنع عقلاً وشرعًا وفطرةً أن يكون لغيره ، فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبّه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ولا ند له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله ، ولشدة قبحه وتضمُّنه غاية الظلم ؛ أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة.

ومن خصائص الإلٰهية ؛ العبودية التي قامت على ساقين لا قِوام لها بدونهما ؛ غاية الحب مع غاية الذل ، هذا تمام العبودية ، وتفاوُت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين ، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغيره فقد شبهه به في خالص حقه ، وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع ، وقبحُه مستقِرٌ في كل فطرة وعقل ، ولكن غَيّرت الشياطين فِطَر أكثر الخلق وعقولهم ، وأفسدتها عليهم واجتالتهم عنها ، ومضى على الفطرة الأولى من سَبقت له من الله الحسنى ، فأرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم ، فازدادوا بذلك نوراً على نور ، ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾.

إذا عُرف هذا ؛ فمن خصائص الإلٰهية السجود ، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به.

ومنها التوكل ، فمن توكل على غيره فقد شبهه به.

ومنها التوبة ، فمن تاب لغيره فقد شبهه به.

ومنها الحلِف باسمه تعظيماً وإجلالاً له ، فمن حلف بغيره فقد شبهه به ، هذا في جانب التشبيه.[1]

وقال الشيخ الشريف محمد بن ناصر الحازمي[2] رحمه الله:

«وقد عَلِم كلُّ عالِم أن عبادة الكفار للأصنام لم يكن إلا بتعظيمها واعتقاد أنها تضر وتنفع ، والاستغاثة بها عند الحاجة ، والتقرب إليها في بعض الحالات بجزء من أموالهم ، وهذا كله قد وقع من المعتَقِدِين في القبور ، إنهم قد عظَّموها إلى حدٍّ لا يكونُ إلا لله سبحانه وتعالى ، بل ربما يترك العاصي منه فعل المعصية إذا كان في

---

١ «الداء والدواء» لابن القيم ، ص ٢٠٨ – ٢١١ .

٢ انظر ترجمته في «عقود الدرر في تراجم علماء القرن الثالث عشر» (٢/٧٢٣) للحسن بن أحمد عاكش الضمدي ، تحقيق: د. إسماعيل بن محمد البشري ، الناشر: مكتبة جامعة الشارقة.

مشهدِ من يعتقده أو قريبًا منه مخافة تعجيل العقوبة من ذلك الميت ، وربما لا يتركها إذا كان في حرم الله تعالى ، أو في مسجد من المساجد أو قريباً من ذلك».[1]

وقال الشيخ عبد الله أبابطين رحمه الله:

«فمن سوَّى بين الحي والميت بقوله: (يُطلب من الميت ما يطلب من الحي) ؛ فقد سوَّى بين ما فرَّق الله والناس بينهما ، حتى المجانين يُفرِّقون بين الحي والميت ، فلو قصد مجنون بيت إنسان ليطعمه فوجده ميتا وأهله عنده ، لعدل إلى الطلب من أهله الأحياء الحاضرين عنده ولم يلتفت إلى الميت».[2]

وقال أيضا: «ويقال لهذا المساوي بين الأحياء والأموات: من المعلوم أن أهل الدنيا يستقضون حوائجهم بعضهم من بعض ؛ برهم وفاجرهم ، مسلمهم وكافرهم ، وقد استعار النبي ﷺ أدراعاً من صفوان بن أمية وهو مشرك ، واستعان في بعض غزواته بأناس من المشركين ، وما زال المسلمون يَستقضون حوائجهم من المسلم والذمي والبر والفاجر ، فيلزم المساوي بين الأحياء والأموات أن يساوي بين أموات المذكورين كما كانوا في الدنيا كذلك.[3]

وقال أيضا: ويقال أيضًا لهذا المُساوي بين الحي والميت: لو أَعطى إنسان آخر مالاً وقال: أودِعه عند ثقة ، فذهب به الوكيل وأودعه عند قبر رجل صالح كالشيخ عبد القادر وقال: هذا وديعة عندك لفلان ، واستحفَظه إياه فضاع ؛ لعده الناس مجنوناً جنوناً لا يرفع التكليف ، وألزموه بالضمان ، ويلزم هذا الذي ساوى بين الحي والميت أن يقول: هو مصيب فيما فعله ولا ضمان عليه ، وربما أنه لا يلتزم هذا خوفاً من الفضيحة عند الناس ، وحينئذ يقول له الوكيل في الإيداع: أنا ما فرطت على مذهبك في التسوية بين الحي والميت ، لأنك تقول: ما جاز طلبه من الحي جاز طلبه من الميت ، وأنا طلبت من الشيخ عبد القادر حِفظ هذه الوديعة وهي حاجتي عنده ، وأنت تُجوِّز طلب الحاجات من الأموات فكيف تُخطِّئني؟!»[4]

---

١ «إيقاظ الوسنان على بيان الخلل في صلح الأخوان» ، ص ٣٧ ، الناشر: دار الشريف – الرياض.

٢ «تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس» ، ص ٨٢ .

٣ «تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس» ، ص ٨٨ .

٤ «تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس» ، ص ٨٤ – ٨٥ .

الوجه التاسع: أن الله عز وجل لا يقبل عملاً دخله الرياء ، لأنه سبحانه وتعـالى غني عن أن يكون له شريك ، فيكون الشرك في الدعاء مردود أيضا ، لأن بابهما واحد ، وهو التقرب للمخلوقين ، ففي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عملا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ.[1]

وقد بَيَّن النبي ﷺ أن الرياء شرك أصغر ، يحبط العمل الذي خالطه ، فعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأصغر.

قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الأصغر يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: الرِّيَاءُ ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمُ:

اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدنيا ، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً.[1]

فإذا كان الرياء شركاً يحبط العمل ؛ فكيف بالدعاء الخالص لغير الله؟

لا شك أنه أشد خطرًا وضررًا.

وإذا كان المرائي يقال له يوم القيامة: (اطلب ثواب عملك ممن عملت لهم) ، فالذي يدعو غير الله يقال له ذلك يوم القيامة ، بل يتبرؤون منه.

نسأل الله العافية من الشرك ، دقيقِه وجليله.

الوجه العاشر: أن الله قد صرَّح في كتابه بأنه لا يستجيب الدعاء إلا الله وحده ، فوجب الإيمان بذلك ، وترك دعاء من لا يستجيب الدعاء ، وإلا كان الراد لهذه الآيات كافرا بها ، قال تعالى ﴿أمن **يجيب** المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾[2] ، وقال ﴿قل أرءيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين * بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾[3]، وقوله تعالى ﴿له دعوة الحق **والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء** إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبسط فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾[4].

---

١ أخرجه أحمد في «المسند» (٤٢٨/٥ ، ٤٢٩) ، وقال محققوه: إسناده حسن.

٢ سورة النمل: ٦٢ .

٣ سورة الأنعام: ٤٠ – ٤١ .

٤ سورة الرعد: ١٤ .

فمن قال إن أهل القبور يجيبون دعاء من دعاهم فهو على خطر عظيم ، وهو الكفر بآيات الله ، لأنه لم يصدق بخبر القرآن الناص على أنه لا يجيب الدعاء إلا الله وحده.

الوجه الحادي عشر: ومن أعظم وجوه بطلان دعاء المخلوقين **تصريح الله سبحانه بأن دعاء غيره باطل** ، وفي هذا كفاية وشفاء لمن أراد الحق ، وذلك في قوله تعالى في سورة الحج ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل﴾[١]، وقوله تعالى في سورة لقمان ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾[٢].
أما دعاء الله فقد وصفه الله بأنه حق كما في قوله تعالى ﴿له دعوة الحق﴾[٣].

الوجه الثاني عشر: أن الله قد حكم على من دعا غيره أنه لا أضل منه فقال ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾[٤].
قال البيضاوي[٥] رحمه الله في تفسيره: «هذا إنكار أن يكون أحدٌ أضل من المشركين ، حيث تركوا عبادة السميع البصير المجيب القادر الخبير إلى عبادة من لا يستجيب لهم ، فضلاً أن يعلم سرائرهم ، ويراعي مصالحهم.
﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾: لأنهم إما جمادات ، وإما عِبادٌ مسخرون مشتغلون بأحوالهم».[٦]

الوجه الثالث عشر: أن ترك دعاء الله من أسباب غضب الله ، هذا إذا كان الداعي لا يدعو غير الله إذا دعا ، فكيف بمن يدعو غير الله إذا دعا؟

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : من لم يسأل الله يغضب عليه.[٧]

الوجه الرابع عشر: أن الله توعد من دعا غيره بالنار ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ كلمة وقلت أخرى ، قال النبي ﷺ: من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار ، وقلت أنا: من مات وهو لا يدعو لله نداً دخل الجنة.[٨]

---

١ الآية ٦٢ .

٢ الآية ٣٠ .

٣ سورة الرعد: ١٤ .

٤ سورة الأحقاف: ٥ .

٥ هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي ، أبو الخير ، ناصر الدين ، البيضاوي ، كان إماما علامة عارفا بالفقه والتفسير والعربية ، نظارا صالحا متعبدا زاهدا شافعيا. انظر «طبقات المفسرين» للداوودي ، ص ١٧٣ ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

٦ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ، سورة الأحقاف: ٥ ، باختصار وتصرف يسير.

٧ رواه الترمذي (٣٣٧٣) ، والطبراني في «الأوسط» (٢٤٥٢) ، وصححه الألباني رحمه الله.

٨ رواه البخاري (٤٤٩٧) ، وأحمد (٣٧٤/١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: تخرج عنق من النار يوم القيامة ، لها عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق ، يقول: إني وُكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد ، **وبكل من دعا مع الله إلها آخر** ، وبالمصورين.[1]

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن قاسم رحمه الله:

لا نعلم نوعًا من أنواع الكفر والردة ورد فيه من النصوص مثل ما ورد في دعاء غير الله ، من النهي والتحذير عن فعله ، وكُفر فاعله ، **والوعيد عليه بالخلود في النار** ، وقد أُفردت هذه المسألة بالتصنيف ، وحكى الإجماع عليها غير واحد من أهل العلم ، وذكروا أنها من ضروريات الإسلام؟[2]

قلت: ومما يُستأنس به في هذا الباب قول الشاعر:

لا تسألنَّ بُنَيَّ آدم حاجة وسَلِ الذي أبوابه لا تُحجبُ

اللهُ يغضبُ إن تركت سؤاله وبُنَيَّ آدم حين يُسألُ يغضبُ

الوجه الخامس عشر: أن هؤلاء الذين يدعون الأنبياء والصالحين يقرون بأن الله تعالى وحده هو الرب الخالق الذي بيده ملكوت كل شئ ، وهذا يستلزم أن يوحِّدوه بالعبادة كما وحَّدوه بالربوبية ، والدعاء من أعظم أنواع العبادة.

قال تعالى ﴿يا أيها الناسُ **اعبدوا ربكم** الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون﴾ ، فكما أن الله لا شريك له في ربوبيته فكذلك لا شريك له في أحقيته وحده بالعبادة ، لأن توحيد الربوبية يقتضي توحيد الألوهية ويدل عليه.

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله: وكثيرا ما يقرن تعالى توحيد الإلٰهية بتوحيد الربوبية لأنه دال عليه ، وقد أقر به أيضا المشركون في العبادة.[3]

---

١ رواه الترمذي (٢٥٧٤) ، وصححه الألباني رحمه الله.

٢ «السيف المسلول على عابد الرسول» ، ص ٢٤ ، باختصار.

٣ «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان» ، أول تفسير سورة الصافات.

الوجه السادس عشر: أن دعاء غير الله محرمٌ بالنظر إلى ما أدى إليه ، وهو اعتقاد الربوبية في أولئك المدعوِّين من دون الله استقلالا أو مشاركةً مع الله ، قال الشوكاني في كتابه «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد»:

«اعلم أن الرزية كل الرزية ، والبلية كل البلية ؛ ما صار يعتقده كثير من العوام وبعض الخواص في أهل القبور ومن المعروفين بالصلاح من الأحياء ؛ **من أنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله ، ويفعلون ما لا يفعله إلا الله عز وجل** ، حتى نطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم ، فصاروا يدعونهم تارة مع الله ، وتارة استقلالا ، ويصرخون بأسمائهم ، **ويعظمونهم تعظيم من يملك الضر والنفع** ، ويخضعون لهم خضوعا زائداً على خضوعهم عند وقوفهم بين يدي ربهم في الصلاة والدعاء ، وهذا إذا لم يكن شركا فلا ندري[1] ما هو الشرك ، وإذا لم يكن كفرا فليس في الدنيا كفرٌ». انتهى باختصار يسير.

وقال الشيخ أحمد بن يحيى النجمي[2] رحمه الله:

«إن شرك مشركي هذه الأمة تجاوز الشفاعة والوساطة التي كان يعتقدها مشركوا العرب إلى الملك وتدبير الكون والإحياء والإماتة ، فقد وُجد في هذه الأمة من يعتقد أن تدبير الكون بأسره يعود إلى أقطابٍ أربعة!

وقد بلغ من جهل الخرافيين من المسلمين بتوحيد الله أن مثل هذه النصوص من آيات التوحيد لم تصُد الجاهلين به منهم عن دعوى قدرة الأنبياء والصالحين – حتى الميتين منهم – على كل شيء من التصرف في نفعهم وضرهم ، مما يجعله الله من الكسب المقدور بمقتضى سننه في الأسباب ، **بل يعتقدون أن منهم من يتصرفون في الكون كله ، كالذين يسمونهم بالأقطاب الأربعة** ، وإن من بعض كبار علماء الأزهر في هذا العصر من يكتب هذا في مجلة الأزهر الرسمية (نور الإسلام) ، فيفتي بجواز دعاء غير الله من الموتى والاستغاثة بهم في كل ما يعجزون عنه من جلب نفع ودفع ضر ، وألف بعضهم كتاباً في إثبات ذلك وكون الميتين من الصالحين ينفعون ويضرون بأنفسهم ويخرجون من قبورهم فيقضون حوائج من يدعونهم ويستغيثون بهم».[3]

---

١ في المطبوع: تدري ، وأظنه تصحيفا.

٢ هو الشيخ أحمد بن يحيى بن محمد بن شبير النجمي ، من أهالي قرية النجامية في جنوب المملكة العربية السعودية ، ولد سنة ١٣٤٦ هـ ، من مشايخه: الشيخ عبد الله بن محمد القرعاوي ، والشيخ حافظ بن أحمد الحكمي ، والشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية رحمهم الله.
كان فقيها محدثا ، له عدة مؤلفات منها: «أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة» ، «تنزيه الشريعة عن إباحة الأغاني الخليعة» ، «رسالة في حكم الجهر بالبسملة» ، «المورد العذب الزلال فيما انتقد على بعض المناهج الدعوية من العقائد والأعمال». توفي رحمه الله سنة ١٤٢٩ هـ.

٣ «أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة» ، ص ٣٤٢ – ٣٤٥ ، باختصار وتصرف ، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية – المدينة.

وادعاء الربوبية للمعبودين قد وقع فيه بعض قدماء المشركين ، كما قال قوم عاد لهود عليه السلام ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾[1] ، أي أصابتك آلهتنا بسوء ، فهم ينسبون التأثير الكوني وتدبير الأمور لتلك الآلهة ، وفي زماننا هذا يظن بعض القبوريون أن القبر إذا كان في مدينة أو قرية فإنهم ببركتهم يرزقون وينصرون ويندفع عنهم الأعداء والبلاء ، وأن السيدة نفيسة خفيرة[2] مصر والقاهرة ، والدسوقي ، والبدوي ، وهكذا ، والشيخ عبد القادر قطب بغداد وخفيرها ، وفلان خفير الشام والحجاز ، ووضعوا لكل بلد خُفَراء.[3]

وذكر زاهد الكوثري[4] أن أرض الشام يحرسها من الآفات والبلايا أربعة من الأولياء الذين يتصرفون في قبورهم![5]

وهي عندهم وسائل دفاع جوي ، فضريح (علي الروبي) بالفيوم بمصر أنقذ المدينة من الدمار خلال الحرب العالمية الثانية ، ببركته التي حولت مسار القنابل إلى بحر يوسف![6]

وعندما يستدعي الموقف الإمداد بـ (قوات خاصة) لمنازلة عدو شديد البأس يطلب القبوريون المدد من أصحاب الأضرحة أيضاً ، فعندما أغار التتر على بلاد الشام كان القبوريون يخرجون يستغيثون بالموتى عند القبور ، ولذا قال بعض شعراء القبورية:

يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبي عمر

---

١ سورة هود: ٥٤ .

٢ قال ابن منظور في «لسان العرب»: خفير القوم مُجيرهم الذي يكونون في ضمانه ما داموا في بلاده.

٣ نقلا من «حوار مع الصوفية» ، ص ٥٦ ، لأبي بكر العراقي كما في «دمعة على التوحيد» ، ص ٧٨ ، الناشر: المنتدى الإسلامي – لندن.

٤ هو محمد زاهد بن الحسن الحلمي ، المعروف بالكوثري ، ولد سنة ١٢٩٦ هـ ، قبوري جهمي مشهور ، معروف بردوده على أئمة أهل السنة في باب الاعتقاد وربما سبهم ، كابن خزيمة وسفيان الثوري والأوزاعي وابن بطة العكبري وعثمان الدارمي وابن المديني والدارقطني وعبد الله بن الإمام أحمد ونعيم بن حماد ، وأما ابن تيمية وابن القيم فحدث عن طعنه فيهم ولا حرج ، يصاحب ذلك سكوت أو تأييد لأئمة البدع والضلال ، كالجهم بن صفوان وغيره.

كان ماتوريديا حنفيا متعصبا ، يدعو إلى الاستعانة بالموتى والتعلق بهم ، رد عليهم علماء كثر ، وقد ألفت رسالة علمية في بيان معتقده الباطل باسم: «زاهد الكوثري وآراؤه الاعتقادية ، عرض ونقد» للأستاذ علي الفهيد ، وللدكتور محمد الخميس كتاب بعنوان «بيان مخالفة الكوثري لاعتقاد السلف» ، وللشيخ محمد بن مانع رحمه الله تعليقات كثيرة على مقالات الكوثري ، وقد تابعه على ضلاله تلميذه عبد الفتاح أبو غدة ، عافانا الله من التقليد الأعمى والتعصب المقيت.

انظر للتوسع مقدمة كتاب «تعليقات العلامة محمد بن مانع على مقالات الكوثري وبعض كتبه» للشيخ الذاب عن دين الله سليمان بن صالح الخراشي ، حفظه الله.

توفي الكوثري عام ١٣٧٥ هـ غير مأسوف عليه.

٥ انظر «جهود علماء الحنفية لإبطال عقائد القبورية» ، ص ٤٦١ .

٦ «موالد مصر المحروسة» ، ص ٥٣ ، نقلا من «دمعة على التوحيد» ، ص ٧٩ .

أو قال:

عوذوا بقبر أبي عمر ينجيكُمُ من الضرر[1]

وذكر السيد رشيد رضا[2] أنه انتشر بين أهل مراكش عند حلول النوائب بهم وتعدي الأجانب عليهم ؛ الاجتماع حول قبر الشيخ إدريس في فاس ، طالبين أن يكشف ما نزل بهم من الشدة تاركين ما تقتضيه حال العصر من التربية والتعليم والإعداد العسكري للأعداء.[3]

وترتفع الخرافة إلى ذروتها حينما يعمد القبوريون إلى تعيين تخصصات للأضرحة ، فطلب الشفاعة هو مطلب الجميع ، غير أن بعض (الأولياء) مشتهر بتحقيق رغبات النساء ، كالزواج للعوانس ، والإنجاب للعاقرات[4] ، وآخر لشفاء أمراض الأطفال ، وآخر لشفاء أمراض الروماتيزم[5]!

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن بن حسن[6] ، رحمه الله تعالى:

وأما بلاد مصر وصعيدها وفيومها وأعمالها فقد جمعت من الأمور الشركية والعبادات الوثنية والدعاوى الفرعونية مالا يتسع له كتاب ولا يدنو له خطاب ، لا سيما عند مشهد أحمد البدوي وأمثاله من المعتقَدين المعبودين ، فقد جاوزوا بهم ما ادعته الجاهلية لآلهتهم ، وجمهورهم يرى مِن تدبير الربوبية والتصريف في الكون بالمشيئة والقدرة العامة ما لم ينقل مثله عن أحد من الفراعنة والنماردة.

وبعضهم يقول يتصرف في الكون سبعة ، وبعضهم يقول أربعة ، وبعضهم يقول قُطبٌ يرجِعون إليه ، وكثيراً منهم يرى الأمر شورى بين عدد ينتسبون إليه ، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾.[1]

١ذكره ابن تيمية في «الرد على البكري» ، ص ٦٣١ .

٢ هو الشيخ محمد رشيد بن علي رضا القلموني ، ولد سنة ١٢٨٢ هـ ، من العلماء بالحديث والأدب والتفسير والتاريخ ، له جهود مشكورة في محاربة عبادة القبور والتعلق بالخرافة ، وهو صاحب «مجلة المنار» المصرية ، والتي أخذت على عاتقها محاربة البدع والخرافات التي أضرت بالمسلمين ، وقد كان للسيد رشيد زلات لا يوافق عليها بسبب تأثره بالمدرسة العقلية ، توفي سنة ١٣٥٤ هـ ، انظر ترجمته في كتاب «مشاهير علماء نجد وغيرهم» ، ص٤٨٦ ، تأليف عبد الرحمٰن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ ، وكذا في كتاب «الأعلام» للزركلي.

٣ قاله محمد أحمد درنيقة ، كما في «الانحرافات العقدية» ، ص ٢١٨ . انظر «دمعة على التوحيد» ، ص ٨٠ .

٤ «الانحرافات العقدية» ، ص ٣٣٦ ، انظر ص ٨٤ من «دمعة على التوحيد».

٥ من مقال «أفيون الشعوب الإسلامية ، النتائج والآثار» ، خالد أبو الفتوح ، انظر ص ٨٢ من «دمعة على التوحيد».

٦ تقدمت ترجمته.

ثم قال: «وفي حضرموت والشحر وعدن ويافع ما تستكُّ[٢] عن ذكره المسامع ، يقول قائلهم: شيء لله يا عيدروس ، شيء لله يا محيي النفوس!»[٣].

قلت: وفضلا عن كون هذا الفعل يدل على جهل فاعله بحق الله تعالى بتفرده بعبادة الدعاء ؛ فإنه يدل أيضا على عدم يقين فاعله باختصاص الله تعالى بصفةِ «الشافي».

الوجه السابع عشر: ومن أعظم الأدلة على بطلان دعاء غير الله أن تلك المعبودات التي تُدعى من دون الله عاجزة من جهة العلم ، وبيان ذلك أن الموتى لا يعلمون شيئا من حاجات الناس ولا أحوالهم ، وقد قرر الله ذلك في مواطن كثيرة من القرآن كقوله تعالى ﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء **وما أنت بمسمع من في القبور**﴾.

قال ابن القيم رحمه الله:

العبد المخلوق لا يعلم مصلحتك حتى يُعَرِّفه الله تعالى إياها ، ولا يَقدِر على تحصيلها لك حتى يُقَدِّره الله عليها ، ولا يريد ذلك حتى يَخلُق الله فيه إرادة ومشيئة ، فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه ، وهو الذي بيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، فتعلُّق القلب بغيره رجاءً وخوفاً وتوكلاً وعبوديةً ضررٌ محض لا منفعة فيه ، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو وحده الذي قدّرها ويسّرها وأوصلها إليك.[٤]

وقد أتى التصريح من النبي ﷺ أنه لا يعلم شيئا مما سيحصل بعد مماته في حديث الحوض ، فكيف بمن دونه ﷺ من الموتى ، قال ﷺ: إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾ ، ثم إن أول من يُكْسى يوم القيامة إبراهيم ، ثم يجاء برجال فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصحابي ، فيقال: **لا تدري ما أحدثوا بعدك** ، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿وكنتُ عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾.[٥]

قال الشيخ أحمد بن يحيى النجمي رحمه الله:

١«الدرر السنية» (٣٨٣/١).

٢ أي تَصُـمُّ وتضيق. انظر «لسان العرب».

٣«الدرر السنية» (٣٨٤/١).

٤ «إغاثة اللهفان» ، ص ٦٦- ٦٧ .

٥رواه البخاري (٣١٩٧) ، ومسلم (٥٢٣٥) ، وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ففي هذا الحديث أخبر النبي ﷺ أنه **لا يعلم بعد موته شيئاً** من أعمالهم ولا أحوالهم ، بل قد كان في حياته شهيدًا عليهم بأعمالهم الظاهرة ، والتزامهم العلني بمتابعته أو عدمها ، فلما توفاه الله كان هو وحده الرقيب عليهم والعليم بأحوالهم وأعمالهم.

وبالتأمل يظهر الفرق بين الكلمتين ، أي: كلمة (الرقيب) وكلمة (شهيد) ، فالمعبّر بها في حق النبي ﷺ كلمة (شهيد) وهي مأخوذة من المشاهدة ، وهي الرؤية البصرية ، فقوله: ﴿وكنت عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم﴾ أي: حال حياتي في حال مشاهدتي لهم ، عِلمتُ من أحوالهم ما يجعلني أشهد عليهم بما رأيت وسمعت وعلِمت من أحوالهم وسلوكهم ، من إيمان ومتابعة ، أو كفر ومنابذة.

أمّا بعد وفاتي فقد فات ذلك بغيابي عنهم ، ولم يبق إلا علمك بهم ورقابتك عليهم ومشاهدتك لأحوالهم وضمائرهم ونياتهم ، ذلك لأنك على كل شيء شهيد وبكل شيء محيط ، فهم خلق من خلقك ، ينفذ فيهم أمرك وتحيط بهم قدرتك ورقابتك ، وتحصي أعمالهم بعلمك الذي لا يفوته شيء ، فكلمة (رقيب) تفيد السيطرة التامة والهيمنة الكاملة والعلم الشامل الذي يحصي دقائق الأمور فضلاً عن جلائلها ، وصغار الأعمال فضلاً عن كبارها.[1]

فإذا كان هذا هو حال النبي ﷺ ، لا يعلم من أحوال الناس شيئا ؛ فكيف بغيره من الأموات؟

أفيجوز أن يقال إنهم يعلمون أحوال الناس؟! حاشا وكلا.

ومما يدل أيضا على أن الأصل في الأموات عدم السماع والإدراك لما يدور خارج الحياة البرزخية ؛ قوله تعالى عن عزير عليه السلام – وكان نبياً من أنبياء بني إسرائيل – ﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام﴾.

فهذا نبي كريم ، لبث مائة عام ميتاً ، فلم يدر بما يدور حوله البتة ، ولا كم لبث في قبره ، فكيف يصح أن يقال إن الأموات يسمعون نداء من ناداهم؟

وقال الشيخ محمد سلطان المعصومي الحنفي[2] رحمه الله في كتابه «المشاهد المعصومية عند قبر خير البرية»: ومن عرف ما وقع له ﷺ من أن جرو الكلب الميت كان تحت سريره وهو لا يدري ، فلما تأخر جبريل عليه السلام وبين أن

١«أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة» ، ص ٣٦٠ – ٣٦١ ، باختصار يسير.

٢ هو أبو عبد الكريم ، محمد سلطان بن محمد أورون بن ملا مير سيد المعصومي الخُجندي ثم المكي ، من قرية خُجندة في روسيا ، كان سلفي العقيدة ، ورحل رحلات طويلة في طلب العلم ، حتى إنه أخذ عن مئة شيخ ، ألف الكثير من الكتب والرسائل جاوزت التسعين كتابا. انظر ترجمته لنفسه موسعة في كتابه «حكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من الميت المدد» ، وكذا في مقدمة كتابه «حبل الشرع المتين وعروة الدين المبين» ، وهي مختصرة.

سبب تأخره أن تحت سريره كلب ؛ علِم بذلك فأخرجه[1] ، وكذا واقعة خلع نعله في الصلاة[2] ، وكذا واقعة فقد عائشة في السفر عن هودَجِها[3] ، فهو ﷺ **لم يعلم ما غاب عن بصره في حياته إلا إذا أعلمه الله تعالى بالوحي ، فكيف يعلم ما غاب عنه بعد موته وهو في عالم البرزخ؟**

أما يعلم هؤلاء الغلاة أنه حينما ترِد طائفة من أمته عن حوضه الكوثر وتُطرَد فيقول ﷺ: يا رب ، إن هؤلاء من أمتي! فيقول الله تعالى: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك.

فقد صرح الله تعالى بأنه ﷺ لا يعلم ما يقع في عالم الدنيا.

فمن يزعم أنه ﷺ يعلم الغيب بعد موته ، أو يُعين من استعان به ، أو يغيث من استغاث به ؛ فقد خالف الكتاب وسنة رسول الله ﷺ وإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم ، فلا شك أن هذا وأمثاله صار محروما من هداية الله وتوفيقه ورحمته وجنته ، ولكن من كمال جهله ونهاية غلوه لا يشعر بذلك ، فقد أعماه التقليد ، فلعنة الله على من أحدث هذه البدع الشركيات ، والخرافات والضلالات ، أعاذنا الله منها بفضله ومنِّه وإحسانه. انتهى باختصار.

له كتب في العقيدة والتوحيد كالكتابين المذكورين ، وكذا كتاب «تمييز المحظوظين عن المحرومين في تجريد الدين وتوحيد المرسلين» ، توفي سنة ١٣٧٩ هـ ، رحمه الله رحمة واسعة.

١ روى مسلم (٢١٠٤) عن عائشة أنها قالت: واعد رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام في ساعة يأتيه فيها ، فجاءت تلك الساعة ولم يأته ، وفي يده عصا فألقاها من يده ، وقال: ما يخلف الله وعده ولا رسله ، ثم التفت فإذا جرو كلب تحت سريره ، فقال: يا عائشة ، متى دخل هذا الكلب ها هنا ؟ فقالت: (والله ما دريت) ، فأمر به فأخرج ، فجاء جبريل ، فقال رسول الله ﷺ : واعدتني فجلست لك فلم تأت.

فقال: منعني الكلب الذي كان في بيتك ، إنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة.

٢ روى أبو داود في «سننه» (٦٥٠) عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ كان ذات يوم يصلي بأصحابه ، فبينما هو في الصلاة إذ خلع نعاله ، فخلع القوم نعالهم ، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال لصحبه: ما حملكم على إلقاء نعالكم؟

فقالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا.

فقال رسول الله ﷺ: إن جبريل ﷺ أتاني فأخبرني أن فيهما قذرا – أو قال: أذى – .

والشاهد من الحديث أن النبي ﷺ لم يعلم ما غاب عنه ، وهو في هذا الحديث القذر الذي كان في نعاله ، حتى أخبره جبريل.

والحديث صححه الألباني ، وكذا الشيخ مقبل الوادعي في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (٣١٣) ، رحمهما الله.

٣ قصة الهودج رواها البخاري (٤٧٥٠) ومسلم (٢٧٧٠) عن عائشة رضي الله عنها ، والشاهد منها أن عائشة رضي الله عنها خرجت مع النبي ﷺ في غزوة ، فلما كانوا ببعض الطريق ذهبت تلتمس عقدا لها ، فلما رجعت فإذا هم قد رحلوا وتركوها ، ظنا منهم أنها كانت في هودجها ، وكانت إذ ذات صغيرة ليست ذات لحم ، فلم يشعروا أنها ليست فيه لخفة وزنها ، فلحقتهم مشيا على أقدامها حتى أدركتهم في الظهيرة ، والشاهد هو أن النبي ﷺ لو كان يعلم ما غاب عنه لعلم بأن زوجته وأقرب الناس له قد ذهب الجيش وتركها.

وقال أيضا: فالميت أيّا كان قد انقطع عمله في هذه الحياة الدنيا ، وهو لا يعلم ما يقع ويجري في الدنيا من الأعمال والأقوال ولو عند قبره ، لأن روح الميت إما في عليين إن كان من السعداء ، كالأنبياء والمؤمنين المفلحين ، أو في سجين وأسفل السافلين إن كان من المشركين والكفرة والملحدين ، وقد تحولوا عن هذه الدار الدنيا ، ودخلوا في عالم البرزخ ، وحال وحُكم عالم البرزخ غير حال عالم الدنيا البتة.

ولو فرضنا أنه يعلم بالواقع ، فإنه لا يقدر على الجواب والرد كما تفيده الآيات الصريحة ، فتنبه.

ولا شك أن الميت – أيّاً كان – محتاج إلى رحمة الله تعالى ، ودعاء الأحياء لهم[1] بالرحمة والمغفرة ينفعهم ، وكذا صدقة الأحياء لهم ، فالنتيجة من زيارة القبر حصول العبرة والاعتبار ، وتذكر الموت والآخرة للزائر ، وحصول ثواب الدعاء والصدقة للميت ، وهذا سر الترغيب في زيارة القبور لا غير ، فمن فعل غير ذلك أو اعتقد غير ما قلنا فقد خالف الله ورسوله ، وعكس الأمر كما لا يخفى. انتهى كلامه بتصرف يسير.

وقال الشيخ حافظ الدين محمد بن محمد شهاب ، المعروف بابن البزاز الكردي الحنفي[2] رحمه الله في «الفتاوى البزَّازية»: من قال إن أرواح المشايخ حاضرة تعلم ؛ يَكفر.[3]

والحاصل أن من تتبع الكتاب والسنة فإنه سيجد من الأدلة ما لا يحصى على أن النبي ﷺ وغيره من الأموات لا يعلمون شيئا من الغيب ، بل إن كل ما آتى الله البشر من قدرات وحواس تعينهم على المعرفة والإدراك كالأذن والعين فإنها تتلاشى وتضمحل ، ولا يبقى إلا عَجَبُ الذَّنب – وهو الفقرة الأخيرة في ظهر الإنسان – ، فهل يقال بعد هذا إن الأموات يعلمون أحوال الأحياء؟ الجواب لا قطعاً ، ومن قال خلاف هذا فقد قال على الله بغير علم.

الوجه الثامن عشر: ومن أدلة بطلان دعاء غير الله أن تلك المعبودات التي تدعى من دون الله عاجزة من جهة القدرة ، فإن المعبودات التي تعبد من دون الله ليست قادرة على نفع عابديها ، لأن تلك المعبودات إن كانت من الأحياء فإنها لا تقدر إلا على فعل ما كان في طاقة البشر ، وهذا يتحصل بدون دعاء ، وإن كانت من الأموات فإنها لا تقدر على شيء البتة ، قال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله﴾ ، فإذا كان هذا حال النبي ﷺ ، فمن دونه لا يملك شيئا من النفع والضر من باب أولى.

---

١ هكذا بضمير الجمع ، والصواب إفراده ، فعله سبقُ قلمٍ ، وكذلك الضميرين بعده.

٢ حافظ الدين محمد بن محمد الكردي ، الحنفي ، المشهور بابن البزازي ، له كتاب مشهور في الفتاوى ، يسمى «الفتاوى البزازية» ، وله كتاب في أبي حنيفة ، انظر «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (٣١٤/٧) ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

٣انظر «البحر الرائق» ، (١٤٣/٥) ، و «مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر» (٥٠٥/٢٠).

وقال تعالى ﴿قل أندعو من دون الله **ما لا ينفعنا ولا يضرنا** ونرد على أعقابنا بعد أن هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران﴾.

وقال تعالى ﴿يدعو من دون الله **ما لا يضره وما لا ينفعه** ذلك هو الضلال البعيد * **يدعو لمن ضره أقرب من نفعه** لبئس المولى ولبئس العشير﴾[1].

أي: يدعو من دون الله ما يضره إن ترك عبادته ، وما لا ينفعه إن عَبَدَه.[2]

وقال تعالى ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر **هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته** قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾.

وقال تعالى ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يُصحبون﴾[3] ، قال الشنقيطي رحمه الله:

والمعنى: أَلَهُم آلهة تجعلُهم في مَنَعَةٍ وعِزٍ حتى لا ينالهم عذابنا؟

ثم بيَّنَ أن آلهتهم التي يزعمون لا تستطيع نفع أنفسها فكيف تنفع غيرها بقوله ﴿لا يستطيعون نصر أنفسهم﴾.

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ولا هم منا يُصحبون﴾ أي يُجارون ، أي ليس لتلك الآلهة مَّجيرٌ يجيرهم منا ، لأن الله يُجير ولا يُجار عليه ، كما صرَّح بذلك في سورة «قد أفلح المؤمنون» في قوله ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون﴾. انتهى كلامه باختصار.

وقال تعالى ﴿أيُشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون * والذين تدعون من دونه **لا يستطيعون نصركم** ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون * إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين * ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون﴾ ، أي اجتمعوا أنتم ومن تدعونهم من دون الله على إيقاع السوء بي من غير إمهال ولا إنظار ، فإنكم لن تستطيعوا شيئا ، لأن ذلك ليس بأيديكم ، بل بيد الله وحده لا شريك له ، القادر على كل شيء.

فتأمل ما في الآية الأخيرة من التحدي لمن تعلق بغير الله.

---

١ سورة الحج: ١٢ .

٢ انظر للفائدة ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة.

٣سورة الأنبياء: ٤٣ .

وقال ابن جرير[1] رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾:

والأوثان والآلهة التي يعبدها هؤلاء المشركون بالله من قومك من دونه لا يقضون بشيء ، لأنها لا تعلم شيئا ، **ولا تقدر على شيء** ، يقول جل ثناؤه لهم: فاعبدوا الذي يقدر على كل شيء ، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، فيجزي محسنكم بالإحسان ، والمسيء بالإساءة ، لا ما لا يقدر على شيء ، ولا يعلم شيئا.[2]

وقال الشيخ عبد الله أبابطين رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾:

والذم إنما توجه إلى من دعا مَن هذه صفته ، سواء كان بشراً أو ملَكاً أو صنماً ، وهو من لا ينفع من دعاه ، ولا يضر من لم يدعه.[3]

وقال البيضاوي[4] الشافعي رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿ءأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمٰن بضر لا تُغن عني شفاعتهم شيئا ولا يُنقذون﴾:

أي لا تنفعني شفاعتهم ، ﴿ولا ينقذون﴾ بالنصر والمظاهرة ، ﴿إني إذا لفي ضلال مبين﴾ ، فإن إيثار ما لا ينفع ولا يدفع ضرا بوجه ما على الخالق المقتدر على النفع والضر وإشراكه به ضلال بَيِّن لا يخفى على عاقل. انتهى.

وقال ابن القيم رحمه الله في معناها: إن العابد يريد من معبوده أن ينفعه وقت حاجته إليه ، وإنما إذا أرادني الرحمٰن الذي فطرني بضرٍّ لم يكن لهذه الآلهة من القدرة ما ينقذوني بها من ذلك الضر ، ولا من الجاه والمكانة عنده ما يشفع لي إليه لأتخلص من ذلك الضر ، فبأي وجه يستحق العبادة؟ وإني إذاً لفي ضلال مبين إن عبدت من دون الله مما هذا شأنه.[5]

ومن الأدلة أيضا على عجز المخلوقين ؛ أن الصحابة رضوان الله عليهم – الذين هم أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام – ما استطاعوا أن يدفعوا عن أنفسهم الضر ، فقد عُذِّبوا أيما عذاب قبل الهجرة النبوية وبعدها ،

١هو العالم المجتهد المحدث الفقيه المقرىء المفسر ، علامة وقته ، محمد بن جرير بن يزيد ، أبو جعفر الطبري ، مات سنة ٣١٠ ، انظر ترجمته في «السير» (٢٦٧/١٤) ، و «وفيات الأعيان» (١٩١/٤-١٩٢).

٢ «تفسير ابن جرير» ، سورة غافر: ٢٠ .

٣ «تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس» ، ص ٨٦ .

٤ تقدمت ترجمته.

٥ «الصواعق المرسلة» ، الفصل العشرون ، ص ٤٩٧ ، الناشر: دار العاصمة – الرياض.

وأصابتهم جراحات كثيرة في الغزوات وغيرها ، بل قد قُتِل كثيرٌ منهم في الغزوات ، وما استطاعوا أن يدفعوا عن أنفسهم الضر.

وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم الضر ، فكم من نبي قد قُتِل؟

وكذلك نبينا محمد ﷺ الذي هو أفضل من الجميع ؛ لم يستطع أن يدفع عن نفسه الضر ، ففي غزوة أحد جُرِح وجهه ﷺ ، وكُسِرت رَبَاعيته[1] ، فكانت فاطمة تغسل الدم وعلي يسكب عليها ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقتها ، ثم ألصقتها بالجرح فاستمسك الدم.[2]

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كُسِرت رَبَاعِيَتُه يوم أحد ، وشُجَّ في رأسه ، فجعل يَسْلِت الدم عنه ويقول: (كيف يُفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله) ، فأنزل الله ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾.[3]

بل إنه في تلك الغزوة جُحِشت ركبته ﷺ ، أي تَقشَّر جلدها ، وجُرِحت شَفَتُه السفلى من باطنها ، وكُسِرت البيضة – أي خوذة الرأس – على رأسه ، وَوَهى منكبه من ضربة ابن قَمِئة.[4]

فإذا حصل هذا البلاء للنبي ﷺ ولم يستطع دفعه وهو حي ، فمن باب أولى أنه لا يستطيع دفع الضر عن غيره وهو في قبره ، وكذلك الأمر بالنسبة لسائر الأموات ممن ليسوا بأنبياء ، فهم من باب أولى لا يقدِرون على شيء.

بل إن هناك ما هو أعظم من ذلك ، وهو أن النبي ﷺ سُحِر ، سَحَره لبيد بن الأعصم ، حتى أنه كان يُخيل إليه أنه يفعل الشيء وهو لم يفعله[5] ، ولم يستطع دفع البلاء عن نفسه.

وقد وردت أخبار كثيرة في ربط النبي ﷺ الحجر على بطنه من الجوع ، فهل يصح بعد هذا أن تُطلب الحاجات منه أو ممن هو دونه بعد الموت؟

بل أعظم من ذلك بكثير ، أن النبي ﷺ أكل من الشاة المسمومة فكانت سبب وفاته ، فأي ضرر دفع عن نفسه قبل أن يأكل ، وأي ضرر دفع عن نفسه بعد أن أكل؟!

١الرَّباعية هي السن بين الثنية والناب ، وهي أربعة أسنان ، ثنتان في الفك الأعلى ، وثنتان في الفك الأسفل. انظر «المعجم الوسيط».

٢انظر ما رواه البخاري (٤٠٧٥) ومسلم (١٧٩٠) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

٣ رواه مسلم (١٧٩١).

٤ انظر للفائدة ما جمعه ابن حجر من الروايات في هذا الباب في «الفتح» (٤٢٣/٧) ، كتاب المغازي ، باب قوله ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾.

٥انظر تفصيل ذلك في «صحيح البخاري» (٣٢٦٨) ، ومسلم (٢١٨٩) ، وابن ماجه (٣٥٤٥) ، و «مسند أحمد» (٥٧/٦).

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن يهودية من أهل خيبر سمَّت شاة مصلِيَّـةً[1] ثم أهدتها لرسول الله ﷺ ، فأخذ رسول الله ﷺ الذراع فأكل منها ، وأكل رهطٌ من أصحابه معه ، ثم قال لهم رسول الله ﷺ : (ارفعوا أيديكم) ، وأرسل رسول الله ﷺ إلى اليهودية فدعاها فقال لها: أسممتِ هذه الشاة؟

قالت اليهودية: من أخبرك؟

قال: أخبرتني هذه في يدي – للذراع.

قالت: نعم.

قال: فما أردتِ إلى ذلك؟

قالت: قلت إن كان نبيا فلن يضره ، وإن لم يكن استرحنا منه.

فعفا عنها رسول الله ﷺ ولم يعاقبها ، وتوفي بعض أصحابه الذين أكلوا من الشاة.[2]

قلت: وكل هؤلاء – الصحابة ونبينا محمد ﷺ وسائر الأنبياء – هم أفضل الخلق وأقربهم إلى الله تعالى ، وهم أفضل قطعا ممن يَلجأ إليهم بعض الناس من أصحاب القبور ويدعونهم ويطلبون منهم كشف الضر وجلب النفع ، كالحسين والبدوي وابن العربي والتيجاني وغيرهم ، ومع هذا فلم يملكوا أن يدفعوا عن أنفسهم الضر أو يجلبوا النفع ، فتبين من هذا أن دعاء من هو دونهم من المقبورين وغيرهم باطل ، وليس في الدنيا أحد يستحق أن يتوجه إليه الناس بالدعاء إلا الله وحده ، وصدق الله عز وجل القائل ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾[3].

وقد بين لنا النبي ﷺ هذه الحقيقة – حقيقة فقر المخلوقين – بيانا عمليا ليزيل من قلوب الناس عقيدة التعلق بالمخلوقات ويُخلصوا التعلق بالله عز وجل ، فقد قام ﷺ على جبل الصفا حين أنزل الله عليه ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ فقال: يا معشر قريش – أو كلمة نحوها – ، اشتروا أنفسكم ، **لا أغني عنكم** من الله شيئا.

يا عباس بن عبد المطلب ، **لا أغني عنك** من الله شيئا.

---

١ مصلية أي مشوية.

[2] رواه أبو داود (٤٥٠٩) ، وصححه الألباني ، ورواه أحمد (٣٠٥/١) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وصححه محققو «المسند» ، وأصل القصة في البخاري (٥٧٧٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي هذا الحديث دليل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب ، إذ لو كان يعلم الغيب لما أكل من الشاة وفيها سم ، فليت غلاة الصوفية يعقلون أنه لا يعلم الغيب إلا الله!

٣ سورة الأنعام: ١٧ .

يا صفية عمة رسول الله ﷺ ، **لا أغني عنك** من الله شيئا.

ويا فاطمة بنت محمد ، سليني من مالي ما شئت ، **لا أغني عنك** من الله شيئا.[1]

فإذا كان سيد المرسلين لا يغني شيئا عن سيدة نساء العالمين ، والتي هي أقرب الخلق إليه ، فكيف بمن هو أبعد منها؟ بل كيف يظن ذلك بمن هو دون النبي ﷺ في المنزلة؟!

ولما حضرت عمه أبا طالب الوفاة ؛ جاء إليه النبي ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل فقال ﷺ لعمه: يا عم: قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله ، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله.[2]

ففي هٰذين الحديثين رد قوي على من يعتقد أن النبي ﷺ يقدر على شيئ من المنافع الأخروية ، حيث أن النبي ﷺ – وهو أفضل الخلق على الإطلاق وأعظمهم عند الله منزلة وأقربهم إليه وسيلة — لم يقدر على نفع أقرب الناس إليه من قرابة وعشيرة ، فكيف يُظن ذلك بمن هو دون النبي ﷺ كالصالحين ونحوهم؟

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله: من براهين التوحيد معرفة أوصاف المخلوقين ومن عُبد مع الله ، فإن جميع ما يُعبد من مَلَكٍ وبشرٍ ، ومن شجر وحجر وغيرها ، كلهم فقراء إلى الله ، **عاجزون** ، ليس بيدهم من النفع مثقال ذرة ، ولا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا ، والله تعالى هو الخالق لكل مخلوق ، وهو الرازق لكل مرزوق ، المدبر للأمور كلها ، الضار النافع ، المعطي المانع ، الذي بيده ملكوت كل شيء ، وإليه يَرجع كل شيء ، وله يَقصِد ويَصمِد[3] ويخضع كل شيء ، **فأي برهان أعظم من هذا البرهان** الذي أعاده الله وأبداه في مواضع كثيرة من كتابه وعلى لسان رسوله؟ فهو دليل عقلي فطري كما أنه دليل سمعي نقلي على وجوب توحيد الله وأنه الحق ، وعلى بطلان الشرك.

وإذا كان أشرف الخلق على الإطلاق لا يملك نفع أقرب الخلق إليه وأمَسَّهم به رحِمًا فكيف بغيره؟

فتبًّا لمن أشرك بالله وساوى به أحدا من المخلوقين ، لقد سُلب عقله بعدما سُلب دينه.[4]

١رواه البخاري (٤٤٩٣) ، ومسلم (٢٠٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢رواه البخاري (٤٤٩٤) ، ومسلم (٢٤) عن المسيب بن حزن رضي الله عنه.

٣أي يلجأ.

٤ «القول السديد في مقاصد التوحيد» ، باب قول الله تعالى ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون﴾.

ومما يُستدل به أيضا في هذا المقام – مقام إثبات عجز المخلوقين – قوله تعالى ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا﴾.[1]

قال ابن جرير رحمه الله: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك الذين يعبدون من دون الله من خَلقِه: ادعو أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه عند ضر ينزل بكم ، فانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم ، أو تحويله عنكم إلى غيركم ، فتدعوهم آلهة؟ فإنهم لا يقدرون على ذلك ، ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم. انتهى.

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى: قل للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أندادا يعبدونهم كما يعبدون الله ، ويدعونهم كما يدعونه ، مُلزِما لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين: ادعوا الذين زعمتم آلهة من دون الله ، فانظروا هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم الضر ، فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم من مرض أو فقر أو شدة ونحو ذلك ، فلا يدفعونه بالكلية، ولا يملكون أيضا تحويله من شخص إلى آخر ، ومن شدة إلى ما دونها ، فإذا كانوا بهذه الصفة فلأي شيء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم ، ولا فِعال نافعة ، فاتخاذهم نقص في الدين والعقل ، وسَفَهٌ في الرأي.

ومن العجب أن السَّفه عند الاعتياد والممارسة وتلقِّيه عن الآباء الضالين بالقبول يراه صاحبه هو الرأي السديد والعقل المفيد ، ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة هو السَّفه والأمر المُتعجَّب منه ، كما قال المشركون ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب﴾.[2]

وقال الشوكاني رحمه الله في «فتح القدير»:

﴿فلا يملكون كشف الضر عنكم﴾ ، أي لا يستطيعون ذلك ، والمعبود الحق هو الذي يقدر على كشف الضر ، وعلى تحويله من حال إلى حال ، ومن مكان إلى مكان ، فوجب القطع بأن هذه التي تزعمونها آلهة ليست بآلهة ، ثم إنه سبحانه أكد عدم اقتدارهم ببيان غاية افتقارهم إلى الله في جلب المنافع ودفع المضار فقال ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾.[3]

---

١ سورة الإسراء: ٥٧ .

٢«تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان».

٣ وانظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان» في تفسير هذه الآية.

وقد أوضح الله لنا أتم إيضاح ، وبيَّن أحسن بيان هذه الحقيقة – أي حقيقة عجز المخلوقين – في قوله تعالى ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ ، فكل ما يعبد من دون لا يستقل بملك شيء ، ولا يشاركه فيه ، ولا يعين الله في تدبير شيء من شئون الكون ، ولا يشفع لأحد يوم القيامة إلا بإذن الله ، ومن كانت هذه حاله فإن دعائه وطلب الحاجات منه من أسفه السفه وأبطل الباطل.

ومن الأدلة القوية أيضا في هذا الباب قوله تعالى في مطلع سورة الفرقان ﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا﴾.

قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

ذَكَرَ جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الآلهة التي يعبدها المشركون من دونه متصفة بستة أشياء ، كل واحد منها برهان قاطع أن عبادتها مع الله لا وجه لها بحال ، بل هي ظلم مُتناهٍ وجهلٌ عظيم ، وشركٌ يخلد به صاحبه في نار جهنم ... والأمور الستة التي هي من صفات المعبودات من دون الله:

الأول منها أنها لا تخلُقُ شيئا ، أي لا تقدِر على خلق شيء.

والثاني منها أنها مخلوقة كلها ، أي خَلَقَها خالِقُ كل شيء.

والثالث أنها لا تملك لأنفسها ضرا ولا نفعا.

الرابع والخامس والسادس أنها لا تملِك موتا ولا حياة ولا نشورا ، أي: بعثا بعد الموت.

وهذه الأمور الستة المذكورة في هذه الآية الكريمة جاءت مبيَّنةً في مواضع أُخَرَ من كتاب الله تعالى.[1]

ثم ساق آيات كثيرة فيها ذكر صفات المخلوقين وبيان عجزهم ، ومن ثمَّ تقرير بطلان عبادتهم مع الله.

وقال ابن القيم رحمه الله:

١«أضواء البيان» ، تفسير سورة الفرقان: ٣ ، باختصار.

«المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضر ، ولا عطاء ولا منع ، ولا هُدى ولا ضلال ، ولا نصر ولا خذلان ، ولا خفض ولا رفع ، ولا عز ولا ذل ، بل الله وحده هو الذي يملك له ذلك كله ، قال تعالى ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يُمسِك فلا مُرسِل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾[1] ، وقال تعالى ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾[2] ، وقال تعالى ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾[3] ، وقال تعالى عن صاحب يٰس ﴿ءأتخذ من دونه آلهة إن يُرِدْنِ الرحمٰن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون﴾[4] ، وقال ﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾[5] ، وقال تعالى ﴿أمّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمٰن إن الكافرون إلا في غرور * أمّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجو في عتو ونفور﴾[6] ، فجمع سبحانه بين النصر والرزق ، فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه وينصره ، ويجلب له منافعه ويرزقه ، فلا بد له من ناصر ورازق ، والله وحده هو الذي ينصر ويرزق ، فهو الرزاق ذو القوة المتين ، ومن كمال فطنة العبد ومعرفته أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره ، وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه.

وقد قال تعالى عن السحرة ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾[7] ، فهو سبحانه وحده الذي يكفي عبده وينصره ويرزقه ويكلَؤه[8]».[9]

ومن طريف ما يُمَثَّل به في باب عجز المخلوقين ما ذكره الشيخ عبد الرحمٰن بن قاسم رحمه الله حيث قال:

---

١ سورة فاطر: ٢ .

٢ سورة يونس: ١٠٧ .

٣ سورة آل عمران: ١٦٠ .

٤ سورة يٰس: ٢٣ .

٥ سورة فاطر: ٣ .

٦ سورة الملك: ٢٠ – ٢١ ، ومن الجدير الاستشهاد به في هذا السياق قوله تعالى ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾.

٧ سورة البقرة: ١٠٢ .

٨ أي يحفظه.

٩ «إغاثة اللهفان» ، ص ٨٢ – ٨٣ .

لو أن ملِكاً أتاه مظلوم فسأله وسأل عبده أيضا – المملوك له العاجز – ليردَّا له مظلمته ، هل يُجوِّزه العقل؟

أو لو أن غنياً كريماً ينفق من أصناف المال ، وله مملوك لا يقدر على شيء ، فجاء محتاج فطلب المملوك العاجز وترك الغني ، هل يجوِّزه العقل؟

وهل يرضى أحد أن يساوي مملوكه معه في حقه؟

أو لو أن ملكاً قاهراً له عبيد لا يقدرون على شيء ، ثم يلوذ أحد العبيد بعبد مثله عاجز ، ويدع الملك القادر ، هل يجوزه العقل؟

ولو أن شخصاً مر على مقبرة ومعه دابة فوقعت في حفرة ، فنادى أهل القبور: يا فلان ، يا فلان ، أعينوني على دابتي، وعنده رجل حي قوي تركه ولم يدْعُه ، هل يجوزه العقل؟ ونحو ذلك من الأمثلة المعروفة في حق العاجز المملوك مع القادر ، بل كل عاقل يضحك منه ويقبحه ويوبخه ، وإذا كان هذا يُستقبح من مخلوق يترك مخلوقاً أقدر ، فكيف بمن ترك الحي القيوم القادر الذي بيده ملكوت كل شيء ، ودعا في كشف الكربات وإغاثة اللهفات من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً؟[1]

وقال أيضا رحمه الله مناصحا أحد من قرروا دعاء غير الله:

فإن قلت: هذا إذا دعا الله أجاب دعاءه أعظم مما يجيب إذا دعوته أنا ؛ فهذا إن كان حياً حاضراً وسألته أن يدعو الله لك ، وأما الميت – نبياً كان أو غيره – فسَفهٌ وتيهٌ أن تدعوهم وقد ذهبت حواسهم وخرجوا من الدنيا ، وارتفعت أرواحهم إلى الجنان ، أو ما شاء الله ، وفارقت أبدانهم ، وتدَع الحي القيوم.[2]

وقال الشيخ عبد الله أبابطين رحمه الله:

ومن العجيب أنه لو جاء إنسان إلى ميت على وجه الأرض شهيداً أو غيره يطلب منه أن يدعو له فضلاً أن يطلب منه أن ينصره على عدوه أو يكسوه لقال الناس: هذا مجنون ، فإذا صار رميماً في بطن الأرض زين لهم الشيطان ودعاة الضلال من الإنس الإستغاثة به وطلب الحاجات منه.

والعامي السليم الفطرة يعلم بطلان هذا بفطرته ،كما حُكي لنا أن رجلاً من أهل مكة يُنسب إلى علم قال لرجل عامي من أهل نجد: أنتم ما للأولياء عندكم قدْر ، والله يقول في الشهداء إنهم أحياء عند ربهم يُرزقون.

---

١ «السيف المسلول على عابد الرسول» ، ص ٦٧ – ٦٨ ، بتصرف يسير.

٢ «السيف المسلول على عابد الرسول» ، ص ٣١ – ٣٢ .

قال له العامي: هل قال يَرزقُون – يعني بفتح الياء – أو قال: يُرزَقون – يعني بالضم –؟ فإن كان يعني بالفتح فأنا أطلب منهم ، فإن كان يعني بالضم فأنا أطلب من الذي يرزقهم.
فقال المَكِّي: حِجاجُكم كثيرة ، وسكت.[1]

الوجه التاسع عشر: ومن أدلة بطلان دعاء غير الله أن تلك المعبودات التي تدعى من دون الله عاجزة من جهة المُلك ، وبيان ذلك أن المعبودات التي تُعبد من دون الله لا تستقل بملكِ شيء ولو كان حقيراً ، فكيف يصح طلب الأشياء منها؟ قال تعالى ﴿والذين تدعون من دونه **ما يملكون** من قطمير﴾ ، والقطمير هو الغشاء الرقيق الذي يحيط بنواة التمر ، **أما الله تعالى فيملك الكون ملكا مطلقا** ، كما قال تعالى ﴿ولله ملك السماوات والأرض﴾ ، وقال تعالى ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾.
ومن الأدلة على نفي الملك عما سوى الله قوله تعالى في سورة سبأ ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما له فيهما من شرك﴾ ، أي لا يملك أحد مع الله شيئا استقلالا ولا مشاركةً، بل كل شيء لله تعالى ، أما المخلوقون فملكهم قاصر ومؤقت ومحدود ، أي محدود على ما تملكوه فقط من بيت ودابة ونحوه ، ومؤقت لكون ما يملكه الإنسان ينتقل بعد وفاته للورثة ، ثم لا ينسب له شيء بعد ذلك البتة ، وقاصر لأنه لا يجوز له أن يتصرف فيه إلا بحدود ما ورد في الشرع ، فلو أراد الإنسان أن يحرق بيته مثلا لكان هذا حراما عليه، ولو أراد أن يضرب عبده بدون سبب لكان هذا حراما عليه ، أما الله فيتصرف في ملكه كما يشاء ، ولا يكون هذا نقصا في حقه ، من إحداث زلازل وفيضانات ، وإغناء فقير وإفقار غني ، ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ ، وكل هذا لحكمة يعلمها الله عز وجل ، ولله الحكمة البالغة.
فالله له الأولى والآخرة ، وله ميراث السماوات والأرض ، سبحانه وتعالى.

الوجه العشرون: ومن أعظم الأدلة على بطلان دعاء غير الله أن تلك المعبودات التي تدعى من دون الله عاجزة من جهة الخلق ؛ فإن الله تعالى خالق كل شيء ، وهو الذي أوجد خلقه وأبرزهم من العدم إلى الوجود ، أما المعبودات التي تعبد من دون الله فلا تستطيع أن **تخلق** شيئا ولو حقيراً ، فدعاؤهم والتعلق بهم باطل إذن ، لأن المخلوق محتاج إلى خالقه ، ومن كان محتاجا فلا يستحق أن يُعبد ، بل عليه هو أن يعبد الله ويسأله حاجته على الدوام ، قال تعالى في بيان بطلان عبادة من ليس بخالق ﴿أفمن **يَخلُقُ كمن لا يَخلُقُ** أفلا تذكرون * وإن تعدوا نعمة

---

١ «تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس» ، ص ١١٨ – ١١٩ .

الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم * والله يعلم ما تسرون وما تعلنون * **والذين يدعون من دون الله لا يخلُقون شيئا وهم يُخلقون** * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون﴾[1].

وضرب الله تعالى مثلا في آخر سورة الحج فقال ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله **لن يخلقوا ذبابا** ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾.

وقد احتج إلياس عليه السلام على قومه بهذا الدليل العقلي – أي دليل عدم القدرة على الخلق – على بطلان دعاء غير الله ، قال تعالى عنه ﴿أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ ، و «بعل» هو اسم صنمٍ كانوا يعبدونه.[2]

وهذا الدليل ظاهر بحمد الله.

الوجه الحادي والعشرون: ومن أعظم الأدلة على بطلان دعاء غير الله أن تلك المعبودات التي تدعى من دون الله عاجزة من جهة التدبير ، فإن جميع ما يعبد من دون الله لا يدبر شيئا في السماوات أو الأرض ، بل المدبر والمؤثر هو الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ ، وقد نفى الله عن نبيه ﷺ أن يكون له من تدبير الأمر شيء ، فقال ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ ، فكيف بمن دون النبي ﷺ ؟!

وقد ثبت في سبب نزول قوله تعالى ﴿قل إن الأمر كله لله﴾ أن النبي ﷺ قنت على بعض الأحياء من العرب ودعا عليهم باللعنة ، فأرشده الله إلى أن الأمر كله بيد الله سبحانه ، فقد يستجيب الله دعاءه فيلعنهم ، وقد يتوب عليهم، ففي صحيح البخاري عن سالم عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الآخرة من الفجر يقول: اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا ، فأنزل الله ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ إلى قوله ﴿فإنهم ظالمون﴾.[3]

وفي رواية لأحمد أنه كان يلعن الحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، فتاب الله عليهم كلهم.[4]

---

١ سورة النحل: ١٧ – ٢١ .

٢ وانظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان» في تفسير سورة يونس في تفسير الآيات من قوله تعالى ﴿قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ إلى قوله ﴿فأنى تؤفكون﴾.

وانظر كذلك ما قاله في تفسير قوله تعالى في سورة الرعد ﴿أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾.

٣ رواه البخاري (٤٥٥٩) ، أو باختصار.

٤ رواه عبد الله بن أحمد في زوائده على مسند أبيه (٩٣/٢) ، وصححه محققو «المسند».

ولفظ ابن جرير: وهداهم الله للإسلام.[1]

قال ابن كثير: اعترضَ بجملةٍ دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له ، فقال تعالى ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ ، أي: بل الأمر كله إلي. انتهى.

ثم قال الله بعدها ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض﴾ ، قال ابن كثير رحمه الله:

أي: الجميع ملك له ، وأهلها عبيد بين يديه ، ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ ، أي: هو المتصرف فلا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. انتهى.

وقال الشيخ صنع الله بن صنع الله الحنفي في رده على من يدَّعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم ، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات ، وبهم تكشف المهمات ، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات ، قال رحمه الله:

فأما قولهم: (إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم) فيرده قوله تعالى ﴿أءله مع الله﴾ ، ﴿ألا له الخلق والأمر﴾، ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ ، ونحوه من الآيات الدالات على أنه المنفرد بالخلق والتدبير والتصرف والتقدير ، ولا شيء لغيره في شيء بوجه من الوجوه ، **فالكل تحت ملكه وقهره تصرفا وملكا وإحياء وإماتة وخلقا**.

وقد تمدح الرب بانفراده **بملكه** في آيات كثيرة من كتابه ، كقوله تعالى ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾.

وأما قول من قال بأن للأولياء التصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة ، قال جل ذكره ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ وقوله ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾، وقال في الحديث: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ... الحديث.

وجميع ذلك وما هو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت ، وأن أرواحهم ممسكة ، وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان ، فدل على أنه ليس للميت تصرف في ذاته فضلا عن غيره بحركة ، فإذا عجز عن حركة نفسه فكيف

تنبيه: في هذا دليل على أن النبي ﷺ لم يكن يعلم الغيب ، إذ لو كان يعلم الغيب لما دعا عليهم أصلا.

١ «جامع البيان في تأويل القرآن» ، تفسير سورة آل عمران: ١٢٨ ، و «المعجم الأوسط» (١٠١/٣).

يتصرف في غيره؟ فإنه سبحانه يخبر أن الأرواح عنده ، وهؤلاء **الملحدون** يقولون إن الأرواح مطلَقةٌ متصرفة! ﴿قل أءنتم أعلم أم الله﴾.

وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات من الكرامات فهو من أعظم المغالطة ، لأن الكرامات شيء من الله تعالى يكرم به أولياءه وأهل طاعته ، لا قصد لهم فيه ولا تحدي ولا قدرة ولا علم ، كما في قصة مريم ابنة عمران وأسيد بن حضير وأبي مسلم الخولاني.

وأما قولهم (فيستغاث بهم في الشدائد) ؛ فهذا أقبح مما قبله وأبدع ، لمصادرة قوله ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ءإله مع الله﴾ ، ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ ، فإنه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره ، وأنه المنفرد بإجابة المضطر ، وأنه المستغاث به لذلك كله ، وأنه القادر على دفع الضر ، القادر على إيصال الخير ، فهو المتفرد بذلك ، فإذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبي وولي.

والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع ونحوه ، كقولهم: يا آل زيد ، يا للمسلمين ، بحسب الأفعال الظاهرة بالفعل.

وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير ، أو في الأمور المعنوية من الشدائد كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه ؛ فمن خصائص الله لا يطلب فيها غيره.

وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجهال وينادونهم ويستنجدون بهم فهذا من المنكرات ، فمن اعتقد أن لغير الله من نبي وولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربة أو قضاء حاجة تأثيرا ؛ فقد وقع في وادي جهل خطر ، فهو على شفا جرف من السعير.

وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات ؛ فحاشا لله أن تكون أولياء الله تعالى بهذه المثابة ، فهذا ظن أهل الأوثان كما أخبر الرحمٰن ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ ، ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ ، ﴿أءتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمٰن بضر﴾ ، فإن ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبي أو ولي وغيره على وجه الإمداد منهم ؛ شرك مع الله تعالى ، إذ لا قادر على الدفع غيره ، ولا خيرَ إلا خيره.[1] انتهى.

---

١ «سيف الله على من كذب على أولياء الله» ، باختصار وتصرف يسير.

الوجه الثاني والعشرون: ومن وجوه بطلان دعاء المخلوقين أنها عاجزة من جهة الرزق ، وقد أنكر الله تعالى في كتابه على من عبد من لا يرزقه ، قال تعالى ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون﴾[1]، كما صرح الله تعالى في كتابه بأن جميع النعم والأرزاق منه وحده لا شريك له ، وهو المتفرد بإنعامها على عباده ، فلا يصح إذن أن تُطلب من غيره ، قال تعالى ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ وقال ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه﴾ وقال ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ ، فالله سبحانه هو الرازق وهو المعطي حقيقة ، وهو الذي ساق الأرزاق إلى من شاء ومنعها عمن شاء ، فالواجب طلبها منه وحده وعدم طلبها من غيره ، ولهذا قال ﴿يسأله من في السماوات والأرض﴾.

ومما يُستدل به على فقر المخلوقين أن النبي ﷺ لم يغنِ أحدا ممن جاءه يطلبه مع شديد حاجتهم ، وهو النبي المؤيد من ربه ، الشفيق على أمته ، فطلب الأشياء ممن هم دون النبي ﷺ في المنزلة باطل من باب أولى.

فقد أتاه بعض الصحابة في غزوة تبوك ليحملهم ، فلم يجد ما يحملهم عليه من الدواب ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع ألا يجدوا ما ينفقون من مالٍ لشراء دابة تحملهم للغزو ، قال تعالى في حقهم ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾.[2]

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ في رهط من الأشعريين نستحمِلُهُ[3] ، فقال: والله لا أحْمِلُكُم ، وما عندي ما أحملكم عليه ، قال: فلبثنا ما شاء الله ، ثم أُتي بإبل ، فأمر لنا بثلاث ذودٍ غُـرِّ الذَّرى[4] ، فلما انطلقنا قلنا — أو قال بعضنا لبعض –: لا يبارك الله لنا ، أتينا رسول الله ﷺ نستحمله فحلف أن لا يحملنا ثم حملنا ، فأتوه فأخبروه فقال: ما أنا حملتُكم ولكن الله حملَكم.[5]

وقال تعالى ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق﴾[6] ، فنكَّر الرزق أولا ، ثم عرَّفه ثانيا ، فدلت الأولى على نفي أن يكون شيء من تلك المعبودات يملك شيئا من الرزق ولو حقيرا ، لأن النكرة في

---

١ سورة النحل: ٧٣ ، وانظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية في كتابه «أضواء البيان».

٢ انظر تفسير ابن جرير لسورة التوبة ، الآية ٩٢ .

٣ أي نطلب منه أن يوفر لنا ما يحملنا من الإبل ويحمل أثقالنا. «شرح النووي على صحيح مسلم»

٤ الذَّود هي الإبل ، والغُرة هي البياض ، والذَّرى جمع ذُروة وهي أعلى الشيء ، فقوله: (ثلاثُ ذودٍ غُـرِّ الذَّرى) أي ثلاثة إبل بيض الأسنمة ، فإن ذروة البعير سنامه. انظر شرح الحديث في شرح النووي للحديث على صحيح مسلم.

٥ رواه مسلم (٤٢٦٣) وابن ماجه (٢١٠٧) والنسائي (٣٧٨٩).

٦ سورة العنكبوت: ١٧ .

سياق النفي تفيد العموم ، وعرف الرزق في الثانية ، أي ابتغوا عند الله الرزق كله ، فالله هو الرازق وحده دون ما سواه.

قال ابن القيم رحمه الله:

«المخلوق لا يقصِد منفعتك بالقصد الأول ، بل إنما يقصد انتفاعه بك ، والرب تعالى إنما يريد نفعك لا انتفاعه بك، وذلك منفعة محضة لك خالصة من المضرة ، بخلاف إرادة المخلوق نفعك ؛ فإنه قد تكون فيه مضرة عليك ولو بتحمُّلِ مِنَّتِهِ.

فتدبر هذا ، فإن ملاحظته تمنعك **أن ترجو المخلوق أو تعامله دون الله ، أو تطلب منه نفعا أو دفعا أو تُعلِّق قلبك به** ، فإنه إنما يريد انتفاعه بك لا محض نفعك ، وهذا حال الخلق كلهم بعضهم مع بعض ، وهو حال الولد مع والده ، والزوج مع زوجته ، والمملوك مع سيده ، والشريك مع شريكه ، فالسعيد من عاملهم لله تعالى لا لهم ، وأحسن إليهم لله ، وخاف الله فيهم ولم يخَفهم مع الله ، ورجا الله بالإحسان إليهم ولم يرجُهُم مع الله ، وأحبهم لحب الله ولم يحبهم مع الله ، كما قال أولياء الله ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءا ولا شكورا﴾[1]».[2]

فإذا تقرر لدينا فقر المخلوقين ، فكيف يصح أن تطلب منهم الحاجات ، ويترك دعاء الغني الذي بيده ملكوت الأرض والسماوات؟

وقد وصف الله نفسه بأنه الغني الرزاق الوهاب المنعم الباسط الجواد المحسن الكريم المعطي النافع المُقِيت[3] الصمد[4] المنان المرجو المرغوب القادر المدبر القيوم – أي الذي يقوم به أمر السماوات والأرض – فمن توجه لمخلوق مثله لم يتصف بواحدة من هذه الصفات وطلب منه حاجاته وترك من له الأسماء الحسنى والصفات العلى ؛ فهذا قد باع نفسه وعبد هواه.

---

١ سورة الإنسان: ٩ .

٢ «إغاثة اللهفان» ، ص ٦٦ .

٣ أي الذي يعطي الناس أقواتهم أي أرزاقهم ، وقيل: معناها الحفيظ ، وقيل غيرها.

انظر ما رواه ابن جرير الطبري في تفسير هذه الصفة عند الكلام على قول الله تعالى ﴿وكان الله على كل شيء مقيتا﴾. النساء: ٨٥ .

٤ أي الذي تلجأ إليه الخلائق في حاجاتها.

انظر ما رواه ابن جرير الطبري في تفسير قول الله تعالى ﴿الله الصمد﴾.

خلاصة

وبناء على ما تقدم من وجوه عجز المخلوقين الخمسة ، العجز في العلم والقدرة والتدبير والخلق والملك والرزق ، فإن توجه الداعي لغير الله مستلزم لسوء الظن بالله العظيم ، قال ابن القيم رحمه الله:

الشرك مبني على سوء الظن بالله ، ولهذا قال إبراهيم – إمام الحنفاء – عليه السلام لخصمائه من المشركين ﴿أئفكا آلهة دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين﴾[1] ، وإن كان المعنى: (ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به وقد عبدتم معه غيره وجعلتم له ندا؟) ، فأنت تجد تحت هذا التهديد: (ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره؟).

فإن المشرك إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه من وزيرٍ أو ظهيرٍ أو عونٍ ، وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته وكل ما سواه فقير إليه بذاته.

وإما أن يَظن أنه سبحانه إنما تتِم قدرته بقدرة الشريك.

وإما أن يظن بأنه لا يَعلم حتى يُـعْلِمَهُ الواسطة.

أو لا يرحم حتى تجعلُه الواسطة يرحم.

أو لا يكفي وحده.[2]

أو لا يفعل ما يريد بالعبد حتى يشفع عنده الواسطة كما يشفع المخلوق عند المخلوق ، فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به وتكثُّره به من القلة وتعزُّزه به من الذلة.

أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن تَرفع تلك الحاجات إليه ، كما هو حال ملوك الدنيا ، **وهذا أصل شِركِ الخلق**.

أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم حتى ترفع الوسائط إليه ذلك[3].

أو يظن أن للمخلوق عليه حقا ، فهو يُقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه ، ويتوسل إليه بذلك المخلوق كما يَتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يَعِزُّ عليهم ولا يمكنهم مخالفته.

---

١ سورة الصافات: ٨٦ – ٨٧ .

٢ أي لا يكفي عبده وحده.

٣ أي: ترفع الدعاء إلى الله.

وكل هذا تنقص للربوبية وهضم لحقها ، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله تعالى وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه من قلب المشرك بسبب قِسمة ذلك بينه سبحانه وبين من أشرك به ، فينقُص ويضعُف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبَده من دونه ؛ (لكفى في شناعته)[1].

فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه ، والتنقص لازم له ضرورةً ، شاء المشرك أم أبى ، ولهذا اقتضى حمده سبحانه وكمال ربوبيته ألا يغفره ، وأن يخلِّد صاحبه في العذاب الأليم ، ويجعلُه أشقى البرية ، فلا تجد مشركا قط إلا وهو متنقص لله سبحانه وإن زعم أنه يعظمه بذلك.[2]

الوجه الثالث والعشرون: ومن وجوه بطلان دعاء غير الله أن تلك المعبودات التي تعبد من دون الله أو مع الله لا تدوم لعابديها ، بل ستفنى وتندثر في الأرض ، وهذا من وجوه عجزها ، فدل هذا على بطلان عبادتها ، إذ لو كانت عبادتها حقا لدامت! فأين قبور الصالحين التي كانت تعبد في الجاهلية؟ وأين الأشجار والأحجار التي كان الناس يسألونها البركة قبل قرن واحد من الزمان؟ هي إما زالت وإما ستزول كما زال غيرها بأمر الله الكوني القدري ، قال تعالى ﴿كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾[3].

وقد أشار إبراهيم عليه السلام إلى هذا الدليل العقلي في معرض دعوته لقومه عباد الكواكب ليبين لهم أن عبادة غير الله باطلة ، قال تعالى عنه ﴿فلما جن عليه الليل رآى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رآى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رآى الشمس بازغةً قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾[4].

ففي هذه الآيات نبه إبراهيم عليه السلام قومه إلى فناء معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله وعدم ديمومتها ليبرهن لهم بذلك على بطلان عبادتها.

أما الله تعالى فإنه حي قيوم ، دائم باق ، لا يزول ولا يفنى ، كما قال تعالى ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ ، فهو المستحق وحده للدعاء والعبادة دون ما سواه.

---

١ ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة الفقي ، ص ٦٢ .

٢ «إغاثة اللهفان» ، ص ١٠٣- ١٠٤ ، باختصار يسير.

٣ سورة الرحمٰن: ٢٦ – ٢٧ .

٤ سورة الأنعام: ٧٦ – ٧٩ .

الوجه الرابع والعشرون: ومن وجوه بطلان دعاء الموتى أن الكتاب والسنة ينصان على أن الميت ليس له اتصال بالدنيا البتة ، بل هو غافل عنها ، سواء كانت روحه في عليين أو كانت في سجين ، فكيف يقدر مَن كانت هذه حاله أن يجيب الطلبات ويقضي الحاجات؟! قال تعالى ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾.

وبناء على هذا فالداعي للميت – في الحقيقة – لا يدعو أحدا ، **وإنما يُكلم نفسه!** إذ إن حياة المؤمن في قبره لا تقتضي ما تقتضيه الحياة الدنيوية من إدراك بالحواس الخمسة ، بل هو في حياة برزخية غيبية ليست من جنس حياة الإنسان في الدنيا ، وهو بكل حال غافل عما يدور في الدنيا كما دلت عليه الآية الكريمة.

الوجه الخامس والعشرون: أن مقتضى فِعل الذين يدعون غير الله من الموتى أو الجمادات أنهم يعتقدون أن الموتى في مرتبة أعلى من مرتبة الأحياء ، لكونهم – في الغالب – لم يَدعونهم إذ كانوا أحياء ، فلمَّا ماتوا شرعوا في دعائهم ، وهذا مخالف لما دل عليه الشرع والعقل والفطرة السليمة من أن الأحياء في مرتبة أعلى من مرتبة الأموات ، قال تعالى في سورة فاطر ﴿وما يستوي الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * **وما يستوي الأحياء ولا الأموات** * إن الله يسمع من يشاء وما أنت بسمع من في القبور﴾[1] ، فواعجبا من أحياء يستغيثون بأموات!

الوجه السادس والعشرون: ومن أدلة بطلان دعاء غير الله ؛ أن الذين يُعبدون من دون الله سيخذلون من كانوا يعبدونهم يوم القيامة ويتبرؤون منهم ، سواء الراضون منهم بعبادتهم أم غير الراضين ، فهذا عيسى عليه السلام سيتبرأ من النصارى الذين كانوا يعبدونه كما قال تعالى ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله قال **سبحانك** ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ ... إلى قوله ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾[2].

---

١ سورة فاطر: ١٩ – ٢٢ .

٢ سورة المائدة: ١١٦ – ١١٧ .

بل جميع المعبودات التي تعبد من دون الله ستتبرأ من عابديها ويلعنونهم ويكونون عليهم ضدا ، أي خُصماء وأعداء ، بخلاف ما كانوا يرجون منهم ويؤمِّلون ، قال تعالى ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم **ويكونون عليهم ضدا**﴾[1].

وقال تعالى ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس **كانوا لهم أعداء** وكانوا بعبادتهم كافرين﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: أي سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم. اهـ.

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة **يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضًا** ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾[3].

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله في تفسير الآية: أي يتبرأ كُلٌّ من العابدين والمعبودين من الآخر ، وإذا حُشِر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ، فكيف تتعلقون بِمَن يُعلَم أنه سيتبرأ من عابديه ويلعنُهم ، وأن مأوى الجميع – العابدين والمعبودين – النار ، وليس أحد ينصُرهم من عذاب الله ، ولا يدفع عنهم عقابه. اهـ.

وقال تعالى ﴿إذ تبرأ الذين اتَّبعوا من الذين اتُّبِعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾[4].

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: وحينئذ يتمنى التابعون أن يُردُّوا إلى الدنيا فيتبرؤوا من متبوعهم ، بأن يتركوا الشرك بالله ويُقبلوا على إخلاص العمل لله ، وهيهات ، فات الأمر ، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار ، ومع هذا فهم كَذَبةٌ ، فلو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنما هو قولٌ يقولونه وأمانيَّ يتمنونها حنقا وغيظا على المتبوعين لـمَّا تبرؤوا منهم ، والذنب ذنبهم ، فرأْسُ المتبوعين على الشر إبليس ، ومع هذا يقول لأتباعه لما قُضِي الأمر ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُم﴾. اهـ.

ففي حين أن حجة غالب الذين يدعون أصحاب القبور أو غيرها أنها تقربهم وتشفع لهم عند الله ؛ فالحق أن تلك المعبودات لن تقربهم وتشفع لهم عند الله يوم القيامة ، بل ستتبرأ منهم ، ويكون تقربهم لها وبالا عليهم ، قال تعالى

---

١ سورة مريم: ٨١ – ٨٢ ، وانظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية الكريمة.

٢ سورة الأحقاف: ٥ – ٦ .

٣ سورة العنكبوت: ٢٥ .

٤ سورة البقرة: ١٦٦ .

﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون * ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء **وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾[1] ، قال ابن كثير رحمه الله: أي ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ، وكفروا بهم ، وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم.

وقال تعالى ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء **لقد تقطع بينكم** وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾[2].

وقال تعالى ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول ءأنتم أضلتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل * قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا * فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا﴾[3]، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾ ، أي فقد كذَّبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يُقرِّبونكم إلى الله زلفى ... وقوله ﴿فما تستطيعون صرفا ولا نصرا﴾ أي لا يقدِرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسِهم. اهـ باختصار.

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

«ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه يحشر الكفار يوم القيامة وما كانوا يعبدون من دونه ، أي يجمعهم جميعًا فيقول للمعبودين: ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ، فزينتم لهم أن يعبدوكم من دوني ، أم هم ضلوا السبيل؟

أي كفروا وأشركوا بعبادتهم إياكم من دوني من تلقاء أنفسهم من غير أن تأمروهم بذلك ولا أن تُزيِّنوه لهم.

وأن المعبودين يقولون: سبحانك ، أي تنزيهاً لك عن الشركاء وكل ما لا يليق بجلالك وعظمتك.

﴿ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء﴾ ، أي ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك ، لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك ، بل فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ، ونحن بُرآء منهم ومن عبادتهم.

ثم قال ﴿ولكن متعتهم وآباءهم﴾ ، أي طال عليهم العمر ، ﴿حتى نسوا الذكر﴾ ، أي نسوا ما أنزلته عليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك.

﴿وكانوا قومًا بورًا﴾ ، قال ابن عباس: أي هلكى.

---

١ سورة الروم: ١٣ .

٢ سورة الأنعام: ٩٤ .

٣ سورة الفرقان: ١٧ – ١٩ .

وقال الحسن البصري ومالك عن الزهري: أي لا خير فيهم». انتهى كلامه رحمه الله.[1]

وقال تعالى في تبرؤ المعبودات من عابديها يوم القيامة ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركاءي الذين كنتم تزعمون * قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى مخبرا عما يُوَبِّخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول ﴿أين شركاءي الذين كنتم تزعمون﴾، يعني أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد ، هل ينصرونكم أو ينتصرون؟

وقوله ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ ، فشهِدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ثم تبرءوا من عبادتهم ، كما قال تعالى ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عِزًّا *كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا﴾. اهـ باختصار.

وقال ابن القيم رحمه الله:

«اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولا بد ، عكس ما أمَّله منه ، فلابد أن يُخذل من الجهة التي قَدَّر أن يُنصر منها ، ويُذم من حيث قَدّر أن يُحمد ، وهذا أيضا كما أنه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب ، قال تعالى ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا *كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا﴾[3] ، وقال تعالى ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون * لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾[4] ، أي يَغضَبون لهم ويُحارِبون كما يغضب الجُندُ[5] ويحارِب عن أصحابه[6] ، وهم لا يستطيعون نصرهم ، بل

---

١ وانظر ما قاله رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون﴾. (سورة النحل: ٨٦).

٢ سورة القصص: ٦٢ – ٦٣ .

٣ سورة مريم: ٨١ – ٨٢ .

٤ سورة يٰس: ٧٤ – ٧٥ .

٥الجُند أي العسكر ، جمع أجناد. انظر «لسان العرب».

٦ أي في الدنيا كانوا يدافعون عن آلهتهم ويغضبون لها سواء كانت أصناما أو قبورا أو غيرها.

هم كَلٌّ[1] عليهم ، وقال تعالى ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب﴾[2] ، أي: غير تخسير ، وقال تعالى ﴿فلا تدع مع الله إلٰها آخر فتكون من المعذبين﴾[3] ، وقال تعالى ﴿لا تجعل مع الله إلٰها آخر فتقعد مذموما مخذولا﴾[4] ، فإن المشرك يرجو بشركِه النصر تارة ، والحمد والثناء تارة ، فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه ، ويحصل له الخذلان والذم ، فصلاح القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله سبحانه والاستعانة به ، وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به».[5]

قلت: وصدق الله القائل ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾.

الوجه السابع والعشرون: ومن أدلة بطلان دعاء غير الله ما قصه الله علينا في القرآن من اعتراف الكفار وهم في النار بأن دعاءهم لغير الله ليس بشيء ، قال تعالى عنهم ﴿أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا **بل لم نكن ندع من قبل شيئا** كذلك يضل الله الكافرين﴾.

الوجه الثامن والعشرون: أنه دعاء أصحاب القبور يلزم منه مضاهاتهم[6] بالله عز وجل في صفة السمع والعلم ، ، وذلك أن الموتى يجتمع لدعائهم جماعات كثيرة ، يدعون بلغات مختلفة ، ويطلبون أغراضاً متعددة ، من أماكن متفرقة ومتباعدة ، وفي أزمان شتى ، ولولا أن الداعين لهم يعتقدون فيهم أنهم يسمعون القريب والبعيد وأنهم يعلمون حاجات جميع الناس لما دعوهم أصلاً ، وفي هذا تشبيه لهم بالله عز وجل في صفة السمع والعلم ، وهذا كفر ، قال نُعيم بن حماد الخزاعي[7] – شيخ البخاري – رحمهما الله: من شبّه الله بخلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها.[1]

---

١ الكَلُّ هو من كان عِبأً على غيره ، والمعنى أنهم في الآخرة سيكونون نقمة عليهم وبلاء إذ لم ينصرونهم كما كانوا يظنون ويحسِبون. انظر معنى «الكَلّ» في «المعجم الوسيط».

٢ سورة هود: ١٠١ .

٣ سورة الشعراء: ٢١٣ .

٤ سورة الإسراء: ٢٢ .

٥ «إغاثة اللهفان» ، ص ٦٣ – ٦٤ ، باختصار يسير.

٦ أي شابهه وفعل مثل فعله. انظر «المعجم الوسيط».

٧ هو الإمام العلامة الحافظ الفرَضي صاحب التصانيف ، حدّث عن جماعة منهم عبد الله بن المبارك ، وروى عنه جماعة منهم البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه ، قال الذهبي: كان من كبار أوعية العلم.

وذكر اللالكائي عن عبد الرحمٰن بن أبي حاتم قال: قال إسحاق بن راهويه[٢]:

مَن وصَفَ الله فشبَّه صفاته بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العـظيم ، لأنه وصفٌ لصفاته ، إنما هو استسلام لأمر الله ولِما سن الرسول ﷺ .[٣]

والواجب إفراد الله تعالى بكمال صفات السمع والعلم ، لأن الله ليس كمثله شيء كما أخبر في كتابه.

انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٥٩٥/١٠) و «تذكرة الحفاظ» (٦/٢).

١ رواه الذهبي في «العلو» رقم ٤٦٤ ، وخرجه في «سير أعلام النبلاء» (٦١٠/١٠) من طريق آخر ، وذكره في كتاب «العرش» ص ٩٣ – ٩٤ وصححه.

٢ هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي أبو محمد بن راهويه المروزي ، ثقة حافظ مجتهد ، مات سنة ٣٨ . انظر ترجمته في «السير» (٣٥٨/١١).

٣ «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» ، رقم (٩٣٧).

الوجه التاسع والعشرون: أن المخلوقات لا تستوي مع بعضها البعض ، فكيف يصح مساواتها بخالقها وهو الله عز وجل ، فيُطلب منها كما يُطلب من الله ، ويُلجأ لها كما يُلجأ إلى الله؟!

وقد ضرب الله هذا البرهان العقلي في سورة النحل فقال تعالى ﴿ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾.

ففي هاتين الآيتين ضرب الله مثلين ، المثل الأول مثلُ العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ، والسيد الحر الغني الذي ينفق ماله سرا وجهرا ، هل يستوون؟ الجواب لا قطعا ، مع أن كلاهما عبدٌ لله سبحانه.

والمثال الثاني رجل أبكم لا يسمع ولا ينطق ، ولا يقدر على شيء ، أي ليس عنده مال قليل ولا كثير ، بل هو كَلٌّ على مولاه ، أي عاجز عن خدمة نفسه لدرجة أن مولاه هو الذي يخدمه ، هل يستوي هذا ومن هو سليم الحواس يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، فأقواله عادلة وتصرفاته مستقيمة؟ الجواب لا قطعا.

فإذا كانت المخلوقات لا تستوي مع بعضها البعض ، فكيف يصح تسويتها مع خالقها جل وعز ، بأن يُطلب منها كما يطلب من الله ، ويُلجأ لها كما يلجأ إلى الله ، كما لو أن صفاتها متطابقة مع صفات الله ، وقدرتها كقدرة الله؟ تعالى الله عن ذلك علوا عظيما.

وقال بعض المفسرين إن المثل الثاني هو مثلُ الله ومثلُ ما يُعبد من دونه ، فمثَّل الله المعبودات التي تُعبد من دونه – من الأصنام والموتى – بالعبد الأبكم الذي لا يقدر على شيء ، وضرب مثلا لنفسه بالسيد الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، وكلا القولين صحيح ويدل على المقصود ، وهو بيان الفرق بين الله وبين خلقه ، وإظهار عدم استحقاق المخلوق – أيًّا كان – لأيِّ لون من ألوان العبادة.

ولما فرغ الله من ذكر المثلين قال ﴿ولله غيب السماوات والأرض﴾ ، ففي هذا توبيخ للمشركين لما عبدوا المخلوق الناقص العلم بحاجات الناس ، وتركوا عالم غيب السماوات والأرض.

فالحاصل هو الاستدلال بعدم تساوي الأحياء مع بعضهم البعض على عدم تساويهم مع الله في مسألة اللجوء والتعلق ، وكذا الاستدلال بعدم تساوي الأحياء مع الأموات على عدم تساويهم مع الله في مسألة اللجوء والتعلق ، فعلى هذا فإن طلب الحاجات من الموتى من أبطل الباطل وأسْفه السّفه.

الوجه الثلاثون: أن دعاء غير الله يستلزم صرف عبادات أخرى يتضمنها الدعاء لغير الله ، كعبادة الخوف والرغبة والرهبة والرجاء والخشوع والخضوع ، وهذه عبادات قد أمر اللهُ العبد بإخلاصها له تعالى ، وصرفها لغير الله شرك ، قال تعالى ﴿ويدعوننا رغبا ورهبا﴾ ، وقال تعالى ﴿وإلى ربك فارغب﴾.

كذلك فإن الدعاء يتضمن الخوف من الله والرجاء لما عند الله ، وهي عبادات أيضا قد أمر الله بها وأثنى على أهلها كما في قوله تعالى ﴿وخافونِ إن كنتم مؤمنين﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿ويرجون رحمته﴾[2].

فكون هذه الأعمال متلازمة ومصاحبة للدعاء يدل على وجوب صرفه نفسه لله تعالى ، وبطلان صرفه لغيره.

الوجه الحادي والثلاثون: ومن أدلة بطلان دعاء المخلوقين أن الأنبياء ومن تبعهم على الحق من الصالحين[3] لا يرضَون بأن يَصرِفَ لهم الناس شيئا من العبادات ، لا في حياتهم ولا بعد مماتهم ، لا دعاء ولا استغاثة ولا ذبحا ولا نذرا ولا سجودا ولا غير ذلك ، ومن أمثلة ذلك أنه لما قدم معاذ من الشام **سجد** للنبي ﷺ فقال: ما هذا يا معاذ؟

فقال: أتيتُ الشام ، فوجدتهم يسجدون لأساقفتهم[4] وبطارقتهم[5] ، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك.

فقال رسول الله ﷺ : فلا تفعلوا ، فإني لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها.[6]

وقد تكرر هذا الفعل عدة مرات أمام النبي ﷺ ، وكان النبي ﷺ ينكره في كل مرة أشد الإنكار.[7]

ومن إنكار الأنبياء على من عبدهم ما قصه الله عن عيسى عليه السلام ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما كان لي أن أقول ما ليس بحق إن كنت

---

١ سورة آل عمران: ١٧٥ .

٢ سورة الإسراء: ٥٧ .

٣ الصالح هو القائم بما أمره الله به ، المنتهي عما نهاه الله عنه.

٤ الأساقفة جمع أُسقُف – بضم الهمزة – ، وهو رئيس النصارى في الدين. انظر «لسان العرب».

٥ بطارقة جمع بِطريق ، بكسر الباء ، ويقال بطريك ، وهو لقب يطلق على المقدمين عند النصارى. انظر «لسان العرب» و«المعجم الوسيط».

٦ رواه ابن ماجه عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه (١٨٥٣) ، والحاكم (١٧٢/٤) ، والطبراني في «الكبير» (٢٠٨/٥) ، وقال الألباني: حسن صحيح ، وانظر «الصحيحة» (١٢٠٣).

٧ انظر ما رواه الدارمي عن قيس بن سعد وعن ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنهما في كتاب الصلاة ، باب النهي أن يسجد لأحد.
وكذا ما رواه الترمذي (١١٥٩) وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وحسنه الألباني كما في «الإرواء» (٥٤/٧).

قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾.

وهذا علي رضي الله عنه لما أُتِي بالزنادقة – الذين غلوا في حبه وتعظيمه حتى عبدوه – أمر بتحريقهم بالنار.[1]

قال ابن تيمية رحمه الله معلقا على فعل علي رضي الله عنه بالزنادقة الذين عبدوه وعلى بعض الأحاديث الواردة في إنكار النبي ﷺ على بعض من غلا فيه:

«فهذا شأن أنبياء الله وأوليائه ، وإنما يُقر على الغلو فيه وتعظيمه بغير حق من يريد علوًا في الأرض وفسادًا كفرعون ونحوه ، ومشائخ[2] الضلالة الذين غرضهم العلو في الأرض والفساد والفتنة بالأنبياء والصالحين واتخاذهم أرباباً والإشراك بهم».[3]

وروى البيهقي في «دلائل النبوة» عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمع عنده النصارى والأحبار فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام:

أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟

فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الربيس: (وذلك تريد يا محمد وإليه تدعو) ، أو كما قال.

فقال رسول الله: معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره ، ما بذلك بعثني ولا أمرني ، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهما ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكمة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾.[4]

بل إن عبادة المخلوقين فيها استخفاف بهم ، لأنهم أنزلوهم في غير منزلتهم ، أرأيت رجلا قال لصاحبه: أنت ملِك!

---

١ انظر «فتح الباري» شرح حديث (٦٩٢٢).

والأثر رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (الناشر: دار الفكر – بيروت) (٤٢/٤٧٥-٤٧٦) في ترجمة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والأصبهاني في «طبقات المحدثين بأصبهان» (٢/٣٤٢-٣٤٣) (الناشر: مؤسسة الرسالة) ، وانظر ما قاله السمعاني في كتاب «الأنساب» (٥/٣٩٦) (الناشر: دار الكتب العلمية) في النسبة إلى (النصيري).

٢ لعل الصواب: مشايخ ، جمع شيخ. انظر «لسان العرب» ، مادة: شيخ.

٣ «مجموع الفتاوى» (٢٧/٨١).

٤ (٥/٣٨٤) ، وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسير الآية الكريمة.

حتما سيشعر ذلك الصاحب أنه يسخر منه ويُقلِّل من شأنه ، فكذلك الذي يعبد الصالحين ، فإنه في الحقيقة يتنقصهم ويحتقرهم ، وإنما يُوقرهم الذي يقتدي بهم في فعل الخير ويدعو لهم ، لا الذي يدعوهم وينزلهم منزلة الرب ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

الوجه الثاني والثلاثون: أن الرسول ﷺ كان ينهى الناس عن مجرد المبالغة في مدحه وتعظيمه ، فكيف بمن أشركه أو أشرك غيره مع الله في الدعاء؟!

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعت النبي ﷺ يقول: **لا تطروني** كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبده ، فقولوا: عبد الله ورسوله.[1]

بل إن النبي ﷺ كان ينهى عما هو أقل من ذلك مما فيه نوع غلو فيه ، فإنه لما صلى جالسا صلى خلفه الصحابة قياما ، فنهاهم عن ذلك ، وقال: إن كدتم آنفا لتفعلون فعل فارس والروم ، يقومون على ملوكهم وهم قعود ، فلا تفعلوا.[2]

ففي هذا الحديث نرى أمر النبي ﷺ للمأمومين بالجلوس إذا جلس الإمام ، مع أن في هذا إخلالا بالركن ، ولكن لأجل المشابهة لما يفعله الكفار لكبرائهم في تعظيمهم لهم نهى عن ذلك ، فكيف بمن توجه لميت بالعبادة نفسها؟![3]

وقال أنس رضي الله عنه: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، قال: وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك.[4]

فإذا كان النبي ﷺ ينهى عن الوقوف له تعظيماً له ، فكيف لو رأى من يدعوه كما يدعو رب العالمين؟

وعن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا. فقال: السيد الله تبارك وتعالى.

قلنا: وأفضلنا فضلا ، وأعظمنا طَولا[5].

---

١ رواه البخاري (٣٤٤٥).

٢ رواه مسلم (٩٢٨).

٣ انظر (٧٤/٢) من «الدرر السنية».

٤ رواه الترمذي (٢٧٥٤) ، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله.

٥ أي أعظمُنا عطاءً وعلُواً على الأعداء ، انظر شرح الحديث في «عون المعبود».

فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان.[1]

ففي هذه الأحاديث وغيرها نرى حماية النبي ﷺ لحمى التوحيد وسده لطرق الشرك بأن نهى صحابته عن مدحهم إياه بما فيه من الخصال التي هي حق في شخصه ﷺ ، فهو سيد ولد آدم ، وخير الناس وأفضلهم ، ولكن لما كان ذلك المدح قد يُفضي إلى الغلو فيه ﷺ نهاهم عن ذلك ، وعدَّ هذا من استجراء الشيطان لابن آدم.

والشاهد أنه لما كانت المبالغة في مدح النبي ﷺ مخالفة شرعية ؛ فمن باب أولى دعاؤه أو دعاءُ غيرِه ، لأن دعاء المخلوق أعظم غلوا من الافراط في مدحه ، بل هو أعظم مظاهر الغلو.

الوجه الثالث والثلاثون: ومن أدلة بطلان دعاء المخلوقين أن أولئك المدعوين من الأنبياء والصالحين والملائكة هم أنفسهم عبيد لله يتقربون إلى الله بالأعمال الصالحة ، ومن كان عبدا فإنه لا يستحق أن يُعبد أو يَتقرب الناس إليه ، قال تعالى ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا﴾[2]، أي تلك المعبودات التي تدعونها من دون الله من الملائكة والمسيح ونحوهم ؛ هم أنفسهم يرغبون إلى الله في طلب ما يقربهم إلى ربهم ، ويتقربون إليه بالعمل الصالح ويتنافسون ليعلموا أيهم أقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة ، ﴿ويرجون رحمته﴾ كما يرجوها غيرهم ، ﴿ويخافون عذابه﴾ كما يخافه غيرهم ، ﴿إن عذاب ربك كان محذورا﴾ ، فهو إذا حقيقٌ بأن يحذَرُهُ العباد من الملائكة والأنبياء وغيرهم.[3]

وقد كان النبي ﷺ يؤكد دائما على هذه العقيدة — عقيدة أنه عبد لله – حتى لا تقع أمته في عبادته ، فقد كان يستفتح خطبه بقوله: وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا **عبده** ورسوله.

وقد وصفه الله بأنه عبد لله في غير ما آية من كتاب الله ، كما في قوله تعالى ﴿سبحان الذي أسرى **بعبده** ليلا﴾ ، وقوله ﴿فأوحى إلى **عبده** ما أوحى﴾ ، وقوله ﴿وأنه لما قام **عبدُ الله** يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا﴾ ،

---

١ رواه أبو داود (٤٨٠٦) ، والنسائي في «الكبرى» (١٠٠٧٦) ، وأحمد (٢٤/٤ – ٢٥) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١١) ، وصححه الألباني.

٢ سورة الإسراء ، الآيتان ٥٦ – ٥٧ .

٣ انظر تفسير الآية في «زبدة التفسير من كلام العلي القدير» ، بتصرف يسير.

ومن المعلوم أن العبد لا يُعبد ، كما أن الرسول لا يُكَذَّب ، فإذا كان النبي ﷺ كذلك ؛ فمن باب أولى لا يُعبد من هو دون الرسول ﷺ ، كالأولياء والصالحين من المقبورين وغيرهم ، والله أعلم.

الوجه الرابع والثلاثون: أن أولئك المدعوين من الأنبياء والصالحين هم أنفسهم محتاجون للأحياء ، بدعائهم والاستغفار لهم ، لأن الميت قد انقطع عمله ، كما قال عليه الصلاة والسلام: إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له.[1]

فهذا محمد ﷺ – أفضل البشر وأقربهم عند الله منزلة – طلب منا أن نصلي عليه ، حيا وميتا ، والصلاة عليه هي الدعاء له بالرحمة ، قال ﷺ : إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول **ثم صلوا علي** ، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم **سلوا الله لي الوسيلة** فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن **سأل لي الوسيلة** حلت له الشفاعة.[2]

وكذلك علَّمنا النبي ﷺ بأن ندعو له ولكل عبد صالح في السماء والأرض ، كما في دعاء التشهد في التحيات: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا **وعلى عباد الله الصالحين** ... الحديث.

ثم قوله في التشهد الأخير: اللهم **صل على محمد وعلى آل محمد** ... الحديث.

ومن ذلك أيضا أن النبي ﷺ علَّم أمته أن يدعوا للميت بالرحمة والمغفرة في عموم الأحوال ، وفي صلاة الجنازة، وبعد الدفن خصوصا ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى على جنازة يقول: اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وشاهدنا وغائبنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا ، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان ، اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تُضلنا بعده.[3]

وعن عثمان رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: استغفروا لأخيكم ، وسلوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل.[4]

---

١ رواه مسلم (١٦٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢ رواه مسلم (٣٨٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

٣ رواه أبو داود (٣٢٠١) وابن ماجه (١٤٩٨) ، وصححه الألباني.

ورواه أحمد (٣٦٨/٢) ، والترمذي (١٠٢٤) بدون زيادة: اللهم لا تحرمنا أجره ... الحديث.

٤ رواه أبو داود (٣٢٢١) عن عثمان رضي الله عنه ، وصححه الألباني رحمه الله.

فإذا تقرر أن الميت بحاجة الحي فلا يصح إذا أن يُطلب من الموتى شيئا من المصالح الدينية أو الدنيوية.

الوجه الخامس والثلاثون: ومن وجوه بطلان دعاء الموتى أن النبي ﷺ مدح من لم يسأله شيئا من الأمور الدنيوية ، وفضَّله على من سأله ، بل ذم كثيراً ممن سأله السؤال الجائز مما يقدر عليه ، وعلَّمهم ترك سؤال الناس ليربيهم على تمام التعلق بالله وحده ، فماذا يقال لمن توجه للنبي ﷺ أو لغيره بطلب الحاجات التي لا يقدر عليها إلا رب العالمين؟

فقد أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفِدَ ما عنده ، فقال: ما يكون عندي من خير فلن أدَّخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغنِ يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطي أحد عطاءً خيرا وأوسع من الصبر.[1]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : من نزلت به فاقة **فأنزلها بالناس** لم تُسد فاقته ، ومن نزلت به فاقة **فأنزلها بالله** ، فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل.[2]

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ وكنا حديثَ عهد ببيعة.

فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله.

ثم قال: ألا تبايعون رسول الله؟

فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله.

ثم قال: ألا تبايعون رسول الله؟

قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام نبايعك؟

قال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، والصلوات الخمس ، وتطيعوا ، – وأسرَّ كلمة خفية – ، **ولا تسألوا الناس شيئا.**

فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يُناوله إياه.[3]

---

١ رواه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣).

٢ رواه الترمذي (٢٣٢٦) ، وأبو داود (١٤٥٢) ، وصححه الألباني رحمه الله.

٣ رواه مسلم (١٠٤٣).

ولما سقط خطام ناقة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ؛ أناخ ناقته وأخذه ، فقالوا له: أفلا أمرتنا نُناولَكَهُ؟ فقال: إن حِبِّي[1] رسول الله ﷺ أمرني أن لا أسأل الناس شيئا.[2]

الوجه السادس والثلاثون: ومن الأدلة على بطلان دعاء غير الله أن العبد كلما كان أكثر توحيدا وذلاً لله وافتقاراً إليه كان أعز له وأعظم لقدره ، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «العبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقارًا إليه وخضوعاً له ؛ كان **أقرب إليه وأعز له وأعظم لقدره** ، فأعظم الخلق أعظمهم عبودية لله ، وأما المخلوق فكما قيل: «احتج إلى من شئت تكن أسيره ، واستغنِ عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره».

فأعظم ما يكون العبد قدرا وحرمة عند الخلق إذا لم يَحتج إليهم بوجه من الوجوه ، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون عندهم ، ومتى احتجت إليهم – ولو في شربة ماء – نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم ، وهذا من حكمة الله ورحمته ليكون الدين كله لله ، ولا يُشرك به».[3]

وقال أيضا: «وكل من علّق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه ؛ **خضع قلبه لهم** ، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك ، وإن كان في الظاهر أميراً لهم مدبراً لهم متصرفاً بهم ، فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر ، فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له ؛ يبقى قلبه أسيراً لها ، تتحكَّم فيه وتتصرف بما تريد ، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها ، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها ، لاسيما إذا درت بفقره إليها وعشقه لها ، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها ، فإنها حينئذ تَحكَّم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه ، بل أعظم ، **فإنَّ أسْر القلب أعظم من أسر البدن ، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن** ، فإن من استُعبد بدنه واستُرق لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً ، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص ، وأما إذا كان القلب – الذي هو المِلك – رقيقاً مستعبداً مُتيماً لغير الله فهذا هو الذل والأسر المحض ، والعبودية لما استعبد القلب».[4]

---

١ الحِب بكسر الحاء هو المحبوب. انظر «النهاية».

٢ رواه أحمد (١١/١) ، وقال محققو «المسند»: حسن لغيره.

٣ «مجموع الفتاوى» (٣٩/١).

٤ «مجموع الفتاوى» (١٨٥/١٠ – ١٨٦).

وقال أيضا رحمه الله: «**ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات** إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه ، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه ، ولا يوالي إلا من والاه الله ، ولا يعادي إلا من عاداه الله ، ولا يحب إلا الله ، ولا يبغض شيئا إلا لله ، ولا يعطي إلا لله ، ولا يمنع إلا لله ، **فكلما قوي إخلاص دينه لله كمُلت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات** ، وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك».[1]

ومما تقدم يتبين أن عبادة غير الله لا يجني منها فاعلها إلا الذل في الدنيا والآخرة ، أما من أخلص العبادة لله تعالى فإنه عزيز ، وذلك لأن الله تعالى شرع دين الإسلام ليُخلص الناس من عبادة البشر إلى عبادة رب البشر ، ومن الرق لمخلوقين إلى الرق للخالق ، وهذه قمة العزة ، فمن دعى غير الله فقد تذلل له ولم يَعِز ، ثم هلك في الآخرة بعدما يتبرأ منه من كان يعبُدُه ، وأما من عبد الله فقد عزَّ نفسه عن الناس في الدنيا ، ونجا في الآخرة مع الناجين ، ففي إفراد الله بجميع أنواع العبادة تحصل العزة في الدارين ، وصدق الله إذ يقول ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعا﴾[2].

وفائدة أخرى تحصل من إخلاص العبادة وهي الكِفاية ، أي كِفاية الله له ،وذلك أن العبد إذا أخلص العبادة لله كفاه الله ووقاه الشرور والآفات ، كما قال تعالى ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ ، فكلما زادت العبودية زادت الكفاية والوقاية ، **أما الذي ينزل حاجته بمخلوق مثله فإنه لا يزال محتاجًا فقيرًا معذبًا لا يحصل له مطلوبه** ، وقد كانت العرب إذا نزلوا واديًا أو مكانًا موحشًا استعاذوا بعظيم ذلك الوادي من الجن من أن تصيبهم الشرور ، فلما رأت الجن ذلك زادوهم خوفاً ورعباً كما قال تعالى ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا﴾ ، وهذا من براهين التوحيد ليكون الدين كله لله ، ولا يشرك معه أحد.

الوجه السابع والثلاثون: ومن أدلة بطلان دعاء غير الله اعتزال الأنبياء لمن وقعوا في دعاء غير الله ولو كان الفاعل لذلك أقرب قريب للدلالة على بطلان هذ الفعل ونكارته ، فهذا إبراهيم قال لقومه

---

١ «مجموع الفتاوى» (١٠/١٩٨).

٢ سورة فاطر: ١٠ ، وانظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية الكريمة في كتابه «أضواء البيان».

﴿**وأعتزلكم** وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً﴾ ، ففي هذا تنبيه إلى أنه بادَءهم بذِكر اعتزالهم أولاً ، ثم عطف عليه باعتزال معبوداتهم.

قال عماد الدين بن كثير ، رحمه الله ، في معنى قوله ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾:

«يقول تبارك وتعالى ردا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله ، المخالف لملة إبراهيم الخليل ، إمام الحنفاء ، فإنه جرَّد توحيد ربه تبارك وتعالى ، **فلم يدعُ معه غيره ، ولا أشرك به طرفة عين** ، وتبرأ من كل معبود سواه ، وخالف في ذلك قومه ، حتى تبرأ من أبيه ، فقال ﴿يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ ، وقال تعالى ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين﴾ ، وقال تعالى ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾ ، وقال تعالى ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا وما كان من المشركين * شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ ، ولهذا وأمثاله قال تعالى ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم﴾: عن طريقته ومنهجه ، فيخالفها ويرغب عنها ، ﴿إلا من سفه نفسه﴾ ، أي ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره ، بتركه الحق إلى الضلال ، حيث خالف طريق من اصطُفي في الدنيا للهداية والرشاد ، من حداثة سنِّهِ إلى أن اتخذه الله خليلا ، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء ، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته ، واتبع طريقة الضلالة والغي فأي سفه أعظم من هذا؟ أم أي ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾». انتهى.[1]

وقد قرن الله بين اعتزال المشركين ومعبوداتهم في موضع آخر من القرآن في سورة الكهف فقال عن أصحاب الكهف ﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا﴾ ، وهذا هو حقيقة التوحيد وعلامة الإيمان الصادق.

وهذا النبي محمد ﷺ لما فتح مكة حطّم جميع الأصنام التي كانت تُعبد وتُدعى من دون الله ، من التي كانت في جوف الكعبة والمحيطة بها وغيرها ، وتبعه على هذا أئمة الهدى.

الوجه الثامن والثلاثون: أن من حقِّ المُنعِم شكرَه على نعمه ، وشكر الله لا يكون إلا بعـــبادته عبادة خالصة ، ليس له فيها شريك ، كما في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (حق

---

١ «تفسير القرآن العظيم» ، سورة البقرة: آية ١٣٠ .

الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)[1] ، فمن عبد غير الله فقد شكر غير الله ، **وجحد نعمة الله عليه.**

وقد ضرب نبي الله يحيى بن زكريا ﷺ مثلا للمشرك الذي يصرف العبادة إلى غير الله بالعبد الذي يعمل ويؤدي الغلة إلى غير سيده ، فعن الحارث الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ ذكر عن يحيى بن زكريا أنه مثّل منْ عَبد غير الله بمثالٍ فقال: إن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بورِق[2] أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسُره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.[3]

الوجه التاسع والثلاثون: ومما يدل على بطلان دعاء غير الله وأن فِعله كفر ؛ أنه لما جحدت بعض أحياء العرب فريضة الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ قاتلهم أبو بكر رضي الله عنه قتال ردة ، فكيف لو رأى من يقول بجواز صرف لب العبادة وخالصها – وهو الدعاء – لغير الله؟

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضي الله عنه[4] ، وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر: فكيف **تقاتل الناس** وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا «لا إله إلا الله» ، فمن قالها فقد عَصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله؟

فقال: والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها.

قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما هو إلا أن شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه ، فعرفت أنه الحق.[5]

---

١ رواه البخاري (٢٨٥٦) ، ومسلم (٣٠).

٢ الورِق هي الفضة.

٣ رواه الطيالسي في المسند (١١٦١) وأحمد في «المسند» (١٣٠/٤) ، والترمذي (٢٨٦٣) وقال: حسن صحيح ، ورواه أبو يعلى في المسند (١٥٧١) ، وابن حبان (٦٢٣٣) ، وغيرهم ، وقال الشيخ ابن باز رحمه الله في إجابة شفهية: (حديث جيد رجاله ثقات) ، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني كما في «صحيح الترمذي» (٢٨٦٣).

٤ أي: وكان خليفة على المسلمين.

٥ «صحيح البخاري» ، (١٣٩٩ ، ١٤٠٠).

ولهذا قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب[1] رحمه الله:

«فإذا كان منعُ الزكاة مِن منعِ حق «لا إله إلا الله» ؛ فكيف بعبادة القبور ، والذبح للجن ، ودعاء الأولياء وغيرهم مما هو دين المشركين؟!»[2]

الوجه الأربعون: أن دعاء الميت والتوجه إليه أشد من مجرد اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ، وقد ثبت – بل استفاض – عن النبي ﷺ أنه لعن الذين يتخذون قبور الأنبياء مساجد ، أي يُصَلُّون عندها ويدعون الله تعالى ، فإذا كان من اتخذها مسجدا يُصلِّي فيه لله تعالى ويدعوه فيها ملعونا ؛ فالذي يقصدها ليدعو غير الله فيها ويتضرع فيها لغير الله ، ويخضع ويخشع فيها لغير الله أحقُّ باللعنة ، وهذا من دلائل بطلان دعاء غير الله.[3]

الوجه الحادي والأربعون: أنه لا يستقيم أن يكون للعبد أكثر من سيد يملكه ، لأن أوامر ونواهي السادة ستختلف عليه ، فمن باب أولى ألاَّ يستقيم أن يكون له أكثر من إله يعبده ، قال تعالى ﴿ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا﴾ ، أي هل يستوي العبد الذي له سيد واحد بالعبد الذي له أكثر من سيد؟ فكذلك لا يستوي المشرك الذي اتخذ مع الله آلهة أخرى والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا **إلها واحدا وهو** الله تعالى ، فأين هذا من هذا؟

ولما كان هذا المثل ظاهرا بيِّنا جليا قال ﴿الحمد لله﴾ أي الحمد لله على إقامة الحجة على كل من أشرك ، ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ، أي: بسبب عدم العلم وقعوا في الشرك.[4]

---

١ الشيخ محمد من المجددين لما اندرس من معالم دين الإسلام في شبه الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر الهجري ، أحيا الله به الدين إلى يومنا هذا ، ونفع به وبمؤلفاته ، كلامه في العقيدة مبثوث في كتبه ، ولد الشيخ محمد سنة ١١١٥ هـ وتوفي سنة ١٢٠٦ هـ ، وكل من جاء بعده من علماء الجزيرة العربية عيالٌ عليه إلى يومنا هذا.

انظر ترجمته في كتاب «علماء نجد خلال ثمانية قرون» للشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن البسام ، وانظر لزاما كتاب «عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية» للشيخ د. صالح بن عبد الله العبود.

وله ترجمة حافلة بقلم حفيده الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، وهي مثبتة في «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٣/٣٧٨-٤٢٩) ، وكذا في «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١/٣٧٢-٤٣٩).

٢ انظر «الدرر السنية» (٢/٤٧).

٣ نقلا من «الرد على الإخنائي» ، لابن تيمية رحمه الله ، ص ٤٦٦ ، بتصرف يسير.

٤ بتصرف من تفسير ابن كثير لسورة الزمر ، الآية ٢٩ .

الوجه الثاني والأربعون: أن الإنسان لا يرضى على نفسه أن يشاركه أحد من عبيده فيما يملكه ، فكيف يرضى على الله أن يشاركه أحد من عبيده فيما يستحقه من خالص حقه ، وهو عبادته وحده لا شريك له؟ قال تعالى ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ ، وقال تعالى ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون﴾ ، وقال تعالى ﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء﴾.

قال ابن القيم رحمه الله:

«فمِن أقبح الظلم أن يعطي العبد حق الرب لغيره ، أو يُشرِّك بينه وبينه فيه ، ولا سيما إذا كان الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه ، كما قال تعالى ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواءٌ تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ ، أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه ، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به ، وهو الإلٰهية التي لا تنبغي لغيري ، ولا تصلح لسواي؟

فمن زعم ذلك فما قدَرني حق قدري ، ولا عظَّمني حق تعظيمي ، ولا أفردني بما أنا منفرد به وحدي دون خلقي.

فما قَدَرَ الله حق قدره مَن عبَد معه غيره ، كما قال تعالى ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز﴾[1]».[2]

ثم قال:

«فهذه إشارة لطيفة إلى السِّر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله ، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه ، وأنه يوجب الخلود في العذاب ، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه ، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده عبادة إله غيره ، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله ، وكيف يُظن

---

١ سورة الحج: ٧٤ .

٢ «الداء والدواء» ، ص ٢١٢ – ٢١٣ ، بتصرف يسير ، وانظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان» في تفسير الآية المتقدمة.

بالمنفرد بالربوبية والإلٰهية والعظمة والجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك ، أو يرضى به ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا».[1]

الوجه الثالث والأربعون: أن القلـوب لا تصلُح إلا بإفراد الله بجميع العبادات ، لاسيما الدعاء ، وإذا تعلق بغير الله وأحبه فوق الحد الشرعي ضرَّه ذلك ، قال ابن رجب الحنبلي[2] رحمه الله في «جامع العلوم والحكم»[3]:

«لا صلاح للقلوب حتى تستقر فيها معرفة الله وعظمته ومحبته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه ، وتمتلئ من ذلك ، **وهذا هو حقيقة التوحيد ، وهو معنى قول «لا إله إلا الله»** ، فلا صلاح للقلوب حتى يكون إلٰهها الذي تألهُهُ وتعرفه وتحبه وتخشاه هو الله **وحده** لا شريك له ، ولو كان في السماوات والأرض إلٰه يؤلَّه سوى الله لفسدت بذلك السماوات والأرض ،كما قال تعالى ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾، فعُلِم بذلك أنه لا صلاح للعالم العلوي والسفلي معاً حتى تكون حركات أهلها **كلها لله** ، وحركات الجسد تابعة لحركات القلب وإرادته ، فإن كانت حركته وإرادته لله وحده ؛ فقد صلح وصلَحت حركات الجسد كلها ، وإن كانت حركة القلب وإراداته لغير الله تعالى ؛ فسد وفسدت حركات الجسد بحسب فساد حركة القلب».

وقال ابن القيم رحمه الله: «تعلُّق العبد بما سوى الله تعالى مضرةٌ عليه إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته ، غير مستعين به على طاعة الله ، فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك ، ولو أحب ما سوى الله ما أحب فلا بد أن يُسلَبَه ويفارقه ، فإن أحبه لغير الله فلابد أن تضره محبته

---

١ «الداء والدواء» ، ص ٢١٧ – ٢١٩ ، وبنحوه قال الشيخ عبد الرحمٰن بن قاسم رحمه الله في «السيف المسلول على عابد الرسول» ، ص ٣٣ – ٣٤ .

٢ هو زين الدين أبو الفرج ، عبد الرحمٰن بن أحمد البغدادي ثم الدمشقي المعروف بابن رجب الحنبلي ، من علماء الشام الأفذاذ ، عاش في القرن الثامن الهجري ، بلغ عدة شيوخه أربعين شيخا ، منهم ابن القيم وابن عبد الهادي رحمهما الله ، برَّز في الحديث والفقه فصار من المذهب الحنبلي، له مؤلفات عديدة أبرزها «فتح الباري شرح صحيح البخاري» ، و «القواعد الفقهية» و «شرح علل الترمذي» و«جامع العلوم والحكم» ، و «ذيل طبقات الحنابلة». جمع بعض الباحثين رسائله المتفرقة في مجموع يقع في خمسة مجلدات ، ونشرتها دار الفاروق الحديثة بمصر. ترجم له ابن حجر رحمه الله في كتابه «إنباء الغمر» وابن العماد في «شذرات الذهب». توفي ابن رجب رحمه الله في دمشق سنة ٧٩٥ هـ .

٣ شرح الحديث السادس.

ويُعذَّب بمحبوبه إما في الدنيا وإما في الآخرة ، والغالب أنه يعذب به في الدارين ، قال الله تعالى ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[1] ، وقال تعالى ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾[2]».[3]

الوجه الرابع والأربعون: ومن وجوه بطلان دعاء المخلوقين هو أن فاعلي ذلك ليسوا واثقين ولا مطمئنين لما يفعلونه ولا ثابتين عليه ، فتراهم يتنقلون بين معبوداتهم ، فتارةً يدعُون ميتاً ، وتارةً يدعُون ميتاً آخر ، وآخرون يدعُون غير الله في الرخاء وإذا أتت الشدة أخلصوا الدعاء لله وحده ونسُوا ساداتهم ومن كانوا يعبدونهم ، كحال المشركين الأولين الذين قال الله فيهم ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾.

ومع شعور هؤلاء بهذه المخادعة النفسية إلا أنهم ماضون في دعاء غير الله ، بسبب التقليد وشدة الحاجة وضعف التعلق بالله العظيم ، ثم إن المضطر إذا كان ضعيف الإيمان أو عديمه ؛ فإنه لا يفكر إلا في قضاء حاجته بأي وسيلة ، شرعية كانت أو شركية!

وهذا التنقل بين المعبودات والاضطراب بينها من براهين بطلان عبادتها ، بينما الذي يفرد الله بالعبادة والدعاء **دائما** لا يقع في شيء من ذلك ، بل هو مطمئن لما يفعل ، إن أجاب الله دعاءه فالحمد لله أن حصل له ما أراده ، وإن لم يحصل عوّضه الله في الآخرة ، أو دفع عنه من السوء في الدنيا ، كما قال النبي ﷺ : «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تُعجل له دعوته ، وإما أن يدَّخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها.

قالوا: إذا نُكثِر.

قال: الله أكثر».[4]

فالحمد لله على نعمة الهداية إلى التوحيد.

---

١ سورة التوبة: ٣٤ – ٣٥ .

٢ سورة التوبة: ٥٥ .

٣ «إغاثة اللهفان» ، ص ٥٤ .

٤ رواه أحمد (١٨/٣) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٠) ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وقال محققو «المسند»: إسناده جيد.

قال الشيخ محمد الأمين المختار الشنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ الآيات[1]:

بيّن جل وعلا في هذه الآيات الكريمة أن الكفار إذا مسهم الضر في البحر ، أي اشتدت عليهم الريح فغَشِيتهم أمواج البحر كأنها الجبال ، وظنوا أنهم لا خلاص لهم من ذلك ؛ ضل عنهم ؛ أي: غاب عن أذهانهم وخواطِرهم في ذلك الوقت كل ما كانوا يعبدون من دون الله جل وعلا ، فلا يدعون في ذلك الوقت إلا الله جل وعَلا وحده , لعِلمهم أنه لا يُنقذ من ذلك الكرب وغيره من الكروب إلا هو وحده جل وعلا ، فأَخلصوا العبادة والدعاء له وحده في ذلك الحين الذي أحاط بهم فيه هَول البحر , فإذا نجاهم الله وفرّج عنهم ووصلوا إلى البر رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر كما قال تعالى ﴿فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾.

وهذا المعنى المذكور في هذه الآية الكريمة أوضحه الله جل وعلا في آيات كثيرة ...

ثم إنّ الله جل وعلا بيّن في هذا الموضع الذي نحن بصددِه سخافة عقول الكفار وأنهم إذا وصلوا إلى البر ونجَوا من هول البحر رجعوا إلى كفرهم آمنين عذاب الله مع أنه قادر على إهلاكهم بعد وصولهم إلى البر بأن يخسف بهم جانب البر الذي يلي البحر فتبْتلعهم الأرض أو يُرسل عليهم حجارة من السماء فتهلكهم ، أو يُعيدهم مرة أخرى في البحر فتُغرقهم أمواجه المتلاطمة ، كما قال هنا منكِراً عليهم أمنهم وكفرهم بعد وصول البر ﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً﴾ ، وهو المطر أو الريح اللذين فيهما الحجارة ، ﴿أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارةً أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم﴾ ، أي بسبب كفركم. انتهى.

الوجه الخامس والأربعون: أن محبة العابد لمعبوده الذي يعبده من دون الله ليست إلا محبة مؤقتة ، سَرَعان ما تنقطع إذا انتقل إلى معبودات أخرى ، أو تعرضت تلك الآلهة إلى الفناء والاندثار ، أما العابد لله وحده فيحب الله دائما ، بل إن محبته وتعلقه بالله تقوى عند الكروب وبعدها ، وهذا من براهين التوحيد ، لتكون العبادة خالصة لله دوما.

---

١ سورة الإسراء: ٦٧ – ٦٩ .

الوجه السادس والأربعون: أن الأمور العظيمة كإنزال الغيث وكشف العذاب لا تحصل إلا بدعاء الله وحده ، قال الله تعالى ﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة بغتة **أغير الله تدعون إن كنتم صادقين** * بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾ ، أما دعاء غير الله من أصحاب القبور وغيرهم فإنه لا تحصل به إلا الأمور الحقيرة التي تقوم بها الجن والشياطين ، التي تستمع لدعاء ذلك الداعي عند القبر فتجيبه وتخاطبه لتغويه ، ليظن ذلك الداعي أن صاحب القبر نفسه هو الذي أجاب دعاءه ، أو أنه توسط له عند الله ليجيب دعاءه.

بل ربما خرق الله العادات بسبب **دعاءٍ قام به مضطر لله وحده** ، كما حصل لزكريا عليه السلام لما دعا الله أن يرزقه الولد ، وكان زكريا كبيراً وامرأته عاقراً لا تلد ، فاستجاب الله دعاءه.

وروى البيهقي في «دلائل النبوة»[1] عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جهَّز جيشا واستعمل عليه العلاء ابن الحضرمي رضي الله عنه ، فلما كانوا ببعض الطريق أصابهم حر شديد ، فجَهِدوا وجَهِدت دوابهم ، فدعا الله بالسقيا ، فثارت سحابة وسُقُوا حتى امتلأت الغُدُر[2] والشِّعاب ، فلما أتوا عدوهم – وقد جاوزوا خليجا في البحر إلى جزيرة – وقف على الخليج وقال: (يا عليُّ ، يا عظيم ، يا حليم ، يا كريم) ، ثم قال: (أجيزوا باسم الله) ، قال أنس: فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا ، فأصبنا العدو غِيلة[3] ، فقَتلنا وأسرنا وسبينا ، ثم أتينا الخليج فقال مثل مقالته ، فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا.

فالحاصل أن من البراهين الدالة على استحقاق الله وحده للدعاء كون الأمور العظيمة والخوارق والكرامات لا تحصل إلا بدعاء الله وحده لا شريك له.

الوجه السابع والأربعون: أن الذين يدعون أصحاب القبور إنما يُستجاب لهم في النادر ، والغالب تخلف الإجابة ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الذي أجاب دعاءهم هو الله وحده ، وإنما استجاب لهم نادرا مكرا بهم ، واستدراجا لهم ، ليتمادوا في الضلال جزاءً لهم على إعراضهم عن دعائه أول مرة ، والله خير

---

١ باب «قدوم ضمام بن ثعلبة» (٥٢/٦).

٢ الغُدُر جمع غدير.

٣ أي خِفية. انظر «النهاية».

الماكرين ، قال تعالى ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[1] ، وقال تعالى ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم إن كيدي متين﴾[2].

وأما الموحدون الذين يدعون الله وحده فإنه يستجاب للواحد بعد الواحد ، ولا تكاد تسقط دعوة واحد منهم إلا لمانع ، وهذا من براهين التوحيد أيضا ، لتكون عبادة الدعاء خالصة لله.

الوجه الثامن والأربعون: ومن أدلة بطلان دعاء غير الله ؛ إنكار واستغراب بعض الكفار لِما يفعله عبَّاد القبور عندها من دعائها والتقرب لها ، قال الشيخ عبد الرحمٰن بن قاسم رحمه الله:

«وقد كان كثير من اليهود والنصارى يعيبون على من يدَّعي الإسلام ما يُفعل عند تلك المشاهد ، ويقولون: إن كان نبيكم أمركم بهذا فليس بنبي ، وإن كان نهاكم عنه فقد عصيتموه ، والعامة والخاصة – بل اليهود والنصارى والمشركون – يعلمون أن محمد ﷺ إنما بُعث بالأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة ما سواه ، وتكفيره[3]».[4]

وقال الكاتب الأمريكي «لوثروب ستودارد» وهو من المؤرخين **المستشرقين** الذين وصفوا انتشار قصد القبور والسفر إليها في القرن الثامن عشر الميلادي في العالم الإسلامي ، قال وهو يصف العالم الإسلامي من الناحية السياسية والاجتماعية:

«وأما الدين فقد غَشِيته غاشية سوداء ، فأُلبست الوحدانية التي علَّمها صاحب الرسالة سِجْفا[5] من الخرافات وقشور الصوفية ، وخلَت المساجد من أرباب الصلوات ، وكثر عدد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين ، يخرجون من مكان إلى مكان ، يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ، ويُرغِّبونهم في الحج إلى قبور الأولياء ، **ويُزيِّنون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور** ، وغابت عن الناس فضائل القرآن ، فصار يُشرب الخمر والأفيون في كل مكان ، **وانتشرت الرذائل ، وهُتِكت سِتر الحرمات على غير خشية ولا استحياء ، وعلى الجملة فقد بُدِّل المسلمون**

---

١ سورة الأنفال: ٣٠ .

٢ سورة الأعراف: ١٨٢ – ١٨٣ .

٣ أي تكفير العابد لما سوى الله.

٤ «السيف المسلول على عابد الرسول» ، ص ١١ .

٥ سِجفا أي سترا وغاشية. انظر «المعجم الوسيط».

غير المسلمين ، وهبطوا مهبطا بعيد القرار ، فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان يَدهى الإسلام ؛ لغضِب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين ، **كما يُلعن المرتدون وعبدة الأوثان**».[1]

وقال الشيخ عبد الله أبابطين رحمه الله: فقد سمعنا من غير واحد من اليهود أنهم يعيبون على المسلمين ما يُفعل عند هذه المشاهد[2] ، يقولون: إم كان نبيكم أمركم بهذا فليس بنبي ، وإن كان نهاكم عنه فقد عصيتموه.

فيا سبحان الله ، ما أعجب هذا!

اليهود ينكرون هذه الأمور الشركية ويقولون: (لا يأتي بها نبي) ، وكثير من علماء هذا الزمان يُجَوِّزون ذلك ، ويوردون الشبه الباطلة عليه ، وينكرون على من أنكره. اهـ.[3]

الوجه التاسع والأربعون: ومن وجوه بطلان دعاء غير الله ما خلَّفه تعظيم القبور والأضرحة من أثر سيء على الأمة الإسلامية في أمور مهمة تتعلق بعمارة الأرض ، والتي أمر الله بها في قوله ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ ، وقوله ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾.

وبيان هذا الوجه أن رغبة الناس في تعلم العلوم الطبية قد قلت في بعض المجتمعات التي ينتشر فيها التعلق بغير الله ، لأنهم صاروا يرَون الطب الحقيقي هو الاستشفاء على يد الموتى بالتقرب لهم بما هو من خصائص الله تعالى ، بدعائهم والذبح لهم والنذر ونحو ذلك ، وفي هذا يقول الباحث علي الزهراني حفظه الله:

وهكذا انصرف الناس إلى خدمة الأموات بإعمار أضرحتهم وبناء القباب عليها ، وصرفوا جهودهم وأموالهم، وكان ذلك على حساب الاهتمام بخدمة الأحياء بالتربية والتعليم ، وتوفير وسائل العيش الكريم لهم ، وتقوية الأمة التي كان أعداؤها في الخارج يتربصون بها الدوائر.[4]

---

١ «حاضر العالم الإسلامي» ، (٢٥٩/١ – ٢٦٠) ، باختصار يسير.

٢ أي ما يُفعل عندها من ألوان التوجه لغير الله ، من الخضوع لها ودعائها والنذر لها وتقبيل أركانها.

٣ «الانتصار لحزب الله الموحدين ، والرد على المجادل عن المشركين» ، ص ٤٠ ، الناشر: دار ابن الجوزي – الدمام.

٤ «الانحرافات العقدية» ، ص ٣١٠ ، نقلا من ص ٨٥ من «دمعة على التوحيد».

بل قد هيَّأ هذا الانحراف العقدي الخطير الناس في القرن الهجري الماضي لهيمنة الغزو العسكري الصليبي ، لأن أهل البلد اعتمدوا على الموتى لحفظ بلادِهم ، فوكَلهم الله إليهم ، ومن ذلك – مثلا – أن الإنجليز لما أدركوا دور الفكر الصوفي القبوري في تخدير مشاعر الناس وصرف الأنظار عن مزاحمتهم أو حتى الإنكار عليهم باسم التوكل والإيمان بالقدَر والزهد وترك مباهج الحياة والانصراف عن الدنيا ؛ اجتهدوا في دعم الفكر القبوري ليطرحوا المسلمين أرضا ، ويستبشروا بموقف خُنوعي خُضوعي للمحتل الأجنبي بخلفيات قدَرية إتكالية استسلامية ، "ولهذا حرصت سلطات الاحتلال في مصر وغيرها على إطلاق يد الطرق الصوفية في ممارسة أنشطتها ، وقد ساعد على ذلك سيطرة سلطات الاحتلال على وزارة الداخلية ، مما مكنها بالتالي من السيطرة على تلك الطرق ومعرفة تحركاتها وأساليبها وتوجيهها إلى الوجهة التي تضمن للمحتل خدمات أكثر ، فما كان من سلطات الاحتلال إلا أن احتضنت الطرق الصوفية في البلاد التي بسطت سلطانها عليها"[1] ، فسهُلت السيطرة عليها.

ومن أمثلة ذلك أيضا عند الفرنسيين ما ذكره مصطفى كامل بطل الوطنية المصرية في كتابه «المسألة الشرقية»، فقد ذكر قصة غريبة ، قال:

ومن الأمور المشهورة عن احتلال فرنسا للقيروان في تونس: أن رجلاً فرنسياً دخل في الإسلام وسمى نفسه سيد أحمد الهادي ، واجتهد في تحصيل الشريعة حتى وصل إلى درجة عالية ، وعُين إماماً لمسجد كبير في القيروان ، فلما اقترب الجنود الفرنساويون من المدينة استعد أهلها للدفاع عنها ، وجاءوا يسألونه أن يستشير لهم ضريح شيخ في المسجد يعتقدون فيه ، فدخل (سيد أحمد) الضريح ، ثم خرج مهوِّلاً بما سينالهم من المصائب ، وقال لهم: إن الشيخ ينصحكم بالتسليم ، لأن وقوع البلاد صار محتماً ، فاتبع القوم البسطاء قوله ، ولم يدافعوا عن مدينة القيروان أقل دفاع ، بل دخلها الفرنساويون آمنين في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٨١م.[2]

وقال الشيخ عبد العزيز بن فيصل الراجحي حفظه الله:

---

١ من مقال «سيف السياسة بين نصرة الحق ومظاهرة الباطل» ، لعبد العزيز مصطفى ، نقلا من كتاب «دمعة على التوحيد» ، ص ٢٠٥ .

٢ «التصوف بين الحق والخلق» ، محمد فهر شقفه ، ص ٢١١ ، نقلا من مقال «أفيون الشعوب الإسلامية ، النتائج والآثار» كما في ص ٧٧ – ٧٨ من «دمعة على التوحيد».

وقد سعى النصارى الصليبيون في القرن الماضي في نشر هذه الخرافات ، وصرفوا الناس عن دينهم إلى الوثنية ، وعما يجب عليهم تجاه أولئك المستعمرين ، بتزيين ما يفعلونه عند القبور.

حتى إن بعض الجزائريين أخبرني أن الفرنسيين لما استولوا على الجزائر كانوا يعمدون إلى بعض المشاهد والأضرحة التي يُنسب أصحابها إلى الصلاح ، فيجمعون الناس لها ثم يوجهون المدفع إليها ، مظهرين لهم أنهم يريدون إصابته وتدميره ، وقد ملؤه بارودا دون ذخيرة – مكرا – ، ثم يطلقون عليه ، فيدوي صوت المدفع ، حتى يخال الحاضرون أنه قد أصابه ، ثم ينظرون فإذا هو باق مكانه ،فيزيد تعلقهم به واعتقادهم فيه!

وذكر الشيخ أحمد بن حسن الباقوري المصري الأزهري (ت ١٤٠٥هـ) في فتوى له في النهي عن زخرفة القبور وبناء القباب والمساجد عليها أن أحد كبار الشرقيين حدثه عن بعض أساليب الاستعمار في آسيا ، فكان مما ذكره له أن المستعمرين كانوا يضطرون إلى تحويل القوافل الآتية من الهند إلى بغداد عبر تلك المنطقة الواسعة إلى اتجاه جديد لهم فيه حاجة وغاية ، فكانوا يسعون جاهدين في صرف القوافل عن اتجاهها الأول إلى الاتجاه الجديد ، فلا يستطيعون ذلك ، حتى اهتدوا إلى حيلة جعلت تلك القوافل تغير اتجاهها إلى وجهتهم المرادة ، فأقاموا عدة أضرحة وقباب على مسافات متقاربة في ذلك الطريق المراد سلوكه ، ثم أشاعوا الشائعات أن في تلك الأضرحة أولياء صالحين ، وأنه قد شوهد من كراماتهم كذا وكذا ، فانتشرت الإشاعات في الآفاق ، وذاعت الأخبار في كلِّ مصرٍ وعراقٍ ، فصارت تلك الطرق عامرة مأهولة!

وقد ذكر هذه القصة الشيخ الألباني رحمه الله ، وعزاها إلى الباقوري كما في «تحذير الساجد» ، ص ١٤٨ – ١٤٩ .[1]

وقد قام أولئك الدراويش برد الجميل لأولئك المحتلين الغزاة ، فكانوا يُضفون الشرعية على وجودهم ، ليُسوِّغوا للناس بقاءهم ، ووصل الأمر إلى أن بعض مشايخ الصوفية في مصر قاموا بجمع توقيعات أثناء ثورة ١٩١٩ م تطالب ببقاء الإنجليز في مصر! وكان من هؤلاء شيخ الطريقة (السمانية): محمد إبراهيم الجمل.[2]

فالحاصل أن تعظيم القبور والأضرحة قد كان سببا رئيسا لتسلط الأعداء على المسلمين ، وتعطيل عمارة الأرض بالإسلام بما يزيد عن قرن ، والله المستعان.

---

١ «مجانبة أهل الثبور ، المصلين في المشاهد وعند القبور» ، ص ٣٣٧ – ٣٣٩ .

٢ من مقال «سيف السياسة بين نصرة الحق ومظاهرة الباطل» ، لعبد العزيز مصطفى ، نقلا من «دمعة على التوحيد» ، ص ٢٠٤ – ٢٠٥ .

الوجه الخمسون: أن عمدة من يدعون غير الله إما شبهات حديثية ، كأحاديث ضعيفة أو موضوعة مكذوبة ، أو شبهات عقلية ، أو تجارب وضعية ، أو قصص أو حكايات أو منامات ، وهذه كلها لا يُعتمد عليها لا في فروع الدين ولا في أصوله ، قال ابن تيمية رحمه الله:

«وأما أولئك الضُّلال ، أشباه المشركين النصارى ، فعُمدتهم إما أحاديث ضعيفة أو موضوعة ، أو منقولات عمَّن لا يُحتج بقوله ، إما أن يكون كذبًا عليه ، وإما أن يكون غلطًا منه ، إذ هي نقل غير مُصَدَّق عن قائل غير معصوم ، وإن اعتصموا بشيء مما ثبت عن الرسول حرَّفوا الكلم عن مواضعه ، وتمسكوا بمتشابهه ، وتركوا محكمه ، كما يفعل النصارى».[1]

قال مقيده عفا الله عنه: ومن الأحاديث المكذوبة على النبي ﷺ ؛ حديث: (إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا بأهل القبور) ، وقد أورده ابن كمال الباشا في كتابه «الأربعين» ، الحديث الثالث.

ويروى بلفظ: إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور.

ويروى أيضا بلفظ: فاستعينوا بأهل القبور.

قال ابن تيمية كما في «التوسل والوسيلة»[2]: «هذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه ، لم يروه أحد من العلماء بذلك ، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة». اهـ.

قلت: وكذا حديث: (لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه الله به) ، فإنه باطل لا أصل له ، وقد حكم بوضعه ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى»[3] ، وقال في موطن آخر: والحديث الذي يرويه بعضُ الكذابين: (لو أحسنَ أحدُكم ظَنَّه بحجرٍ لَنفَعَه الله به) كَذِب مُفترى باتفاقِ أهلِ العلم ، وإنما هذا من قولِ عُبَّادِ الأصنام الذين يُحسِنون ظنَّهم بالحجارةِ وقال تعالى لهم ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ ، وقال تعالى ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ، وقال الخليل ﴿يا أبتِ لم تعبد ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يُغنِي عنك شيئا﴾ ، وقال تعالى عن عُباد العِجل ﴿ألم يروا أنه لا يُكلمهم ولا يهدِيهم سبيلا﴾ ، وذكر تعالى عن الخليل أنه قال لقومه ﴿ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكِفون﴾...

---

١ «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢ /٥٨٧).

٢ ص ٢٩٧ ، تحقيق د. ربيع بن هادي المدخلي ، الناشر: مكتبة لينة – دمنهور ، مصر ، سنة ١٤١٢ هـ.

٣ (٢٤/٣٣٥).

فهؤلاء المشرِكون كانوا قد أحسنوا ظنهم بالحجارة فكان عاقبتهم أنهم في النار خالدون ، وإنما يُحسِن العبد ظنه بربه ... وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (لا يموتن أحدُكم إلا وهو يحسن الظن بالله)[1]. انتهى كلامه.[2]

وقال ابن القيم رحمه الله في معرِضِ ذكره لأسباب الافتتان بالقبور: «ومنها[3] أحاديث مكذوبة مختلقة ، وضعها أشباه عُبّاد الأصنام من المُقابِرِيَّةِ[4] على رسول الله ﷺ ، تُناقض دينه وما جاء به ، كحديث: (إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور) ، وحديث (لو أحسن أحدكم ظنه بحجر نفعه) ، وأمثال هذه الأحاديث التي هي **مناقضة لدين الإسلام** ، **وضعها المشركون** ، وراجت على أشباههم من الجهال الضُّلال ، والله بعث رسوله بقتل من حسَّن ظنه بالأحجار ، وجنّب أمته الفتنة بالقبور بكل طريق».[5]

وقال أيضا في معرض ذكره لجملة من الأحاديث الموضوعة:

«وحديث: (لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه) ، وهو من وضع المشركين ، عباد الأوثان».[6]

وقال ابن حجر العسقلاني: «لا أصل له».[7]

وقال الشيخ الألباني: «موضوع».[8]

وأورده الشيخ مرعي الكرمي في كتابه «الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة»[9] ، والفُتّني في كتابه «تذكرة الموضوعات»[10] ، وكذا الأزهري في كتابه «تحذير المسلمين من الأحاديث الموضوعة على سيد

---

١ رواه مسلم (٢٨٧٧).

٢ «جامع المسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية» ، المجموعة الخامسة ، ص ١٠٤ – ١٠٦ ، باختصار ، تحقيق محمد عزير شمس ، الناشر: دار عالم الفوائد – مكة.

٣ أي من أسباب الفتنة بالقبور.

٤ أي عُبَّاد القبور.

٥ «إغاثة اللهفان» (٣٨٧ – ٣٨٨).

٦ «نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول» ، ص ١٣٢ ، تحقيق عبد الرحمٰن بن يحيى المعلمي اليماني ، الناشر: دار العاصمة – الرياض.

٧ ذكره الملا علي القاري في «الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة» ، وهو المعروف بـ «الموضوعات الكبرى» برقم ٣٧٦ ، تحقيق محمد بن لطفي الصباغ ، الناشر: المكتب الإسلامي.

٨ «السلسلة الضعيفة» (٤٥٠).

٩ رقم ١٨٨ ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، الناشر: دار الكتب العلمية.

١٠ ص ٢٨ ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – لبنان.

المرسلين»[1] ، وكذا السخاوي كما في «المقاصد الحسنة»[2] ، والملا علي القاري في «موضوعاته»[3] ، و«كشف الغطا»[4] للعجلوني.

فالحاصل أن هذا الحديث لم يرد في أي من كتب الحديث المعتبرة ، بل ليس له إسناد أصلا ، وإنما يتوارد على ألسنة المعتقدين في أهل القبور جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، وإنما هو حديث موضوع مكذوب على النبي ﷺ .

ثم إنه وما جاء في معناه من الأحاديث يخالف أصل الدين ، فإنه من المعلوم من الدين بالضرورة أن أصل الدين عبادة الله وحده ونبذ عبادة ما سواه.

وللعلم فإنه يروى غير ما ذكرنا من الأحاديث المكذوبة في باب التألـه لغير الله ، وليس المقام مقام استقصائها، فالواجب الحذر على كل حال ، فكل ما خالف أصلا من أصول الدين فهو مكذوب على النبي ﷺ ، فإن دين الله ليس به تناقض.

الوجه الحادي والخمسون والأخير: ومن وجوه بطلان دعاء غير الله أن فاعل ذلك قد حرم نفسه من فرح الله بإقباله إليه ، وانطراحه بين يديه ، بدعائه مباشرة ، واستعاض عن هذا بالانطراح بين يدي مخلوق مثله ، ليس له من الأمر شيء ، ولا يقربه من ربه بشيء ، ومن المعلوم أن الله أشد فرحا من عبده بإقباله إليه ولو بلغت ذنوب عبده عنان السماء ، قال الله عز وجل في الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: قال النبي ﷺ : يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، **وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة.**[5]

---

١ ص ١٢٨ ، تحقيق محيي الدين مستو ، الناشر: دار ابن كثير – دمشق.

٢ رقم ٨٨٣ ، تحقيق محمد عثمان الخشت ، الناشر: دار الكتاب العربي – لبنان.

٣ رقم ٣٧٦ .

٤ رقم ٢٠٨٧ ، تحقيق أحمد القلاش ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت.

٥ رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥).

خاتمة البحث

وبناء على ما تقدم من الأدلة النقلية والعقلية تبين لنا أن دعاء غير الله باطل ، وشرك أكبر مخرج من ملة الإسلام ، يستوي فاعله مع اليهود والنصارى وعُبَّاد الأصنام ، ولو صلى وصام وزعم أنه مسلم.

تم بحمد الله كتاب «خمسون دليلا على بطلان دعاء غير الله» ، نفع الله به كاتبه وقارءه وناشره ، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ، وسلم تسلميا كثيرا ، تمت الرسالة بحمد الله.

ثبت لأهم المراجع

١. الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار ، عبد الله بن أبي شيبة ، تحقيق محمد بن عبد السلام بن شاهين ، الناشر: مكتبة دار الباز – مكة

٢. المنتخب من مسند عبد بن حميد ، تحقيق مصطفى العدوي ، الناشر: دار بلنسية – الرياض

٣. دلائل النبوة ، أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق د. عبد المعطي أمين قلعجي ، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت ، ط٢

٤. الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين ، مقبل بن هادي الوادعي ، الناشر:دار الآثار – صنعاء ، سنة ١٤٢٦ هجرية

٥. الرد على الإخنائي ، ابن تيمية ، تحقيق أحمد بن مونس العنزي ، الناشر:دار الخراز – جدة

٦. الاستغاثة في الرد على البكري ، ابن تيمية ، تحقيق عبد الله السهلي ، الناشر: مدار الوطن – الرياض ، ط ١

٧. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، ابن القيم ، تحقيق علي بن حسن بن عبد الحميد ، الناشر: دار ابن الجوزي – الدمام

٨. الداء والدواء ، ابن القيم ، تحقيق علي حسن عبد الحميد ، الناشر: دار ابن الجوزي – الدمام ، سنة ١٤٢٥ هجرية

٩. مدارج السالكين ، ابن القيم ، تحقيق عبد العزيز بن ناصر الجليل ، ط دار طيبة – الرياض

١٠. المجموع المفيد في نقض القبورية ونصرة التوحيد ، جمع د. محمد بن عبد الرحمٰنالخميس ،الناشر:دار أطلس – الرياض

١١. تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس، عبد الله أبابطين ، الناشر:مؤسسة الرسالة – بيروت

١٢. السيف المسلول على عابد الرسول ، عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم

١٣. سيف الله على من كذب على أولياء الله ، صنع الله بن صنع الله الحلبي الحنفي ، تحقيق علي رضا بن عبد الله بن علي رضا ، الناشر: مدار الوطن – الرياض

١٤. دمعة على التوحيد ، الناشر: المنتدى الإسلامي – لندن

١٥. جهود علماء الحنفية لإبطال عقائد القبورية ، شمس الدين الأفغاني ، الناشر: دار الصميعي – الرياض

١٦. زيارة القبور عند المسلمين ، سالم بن قطوان العبدان ، الناشر: دار غراس – الكويت